

قصة حياة

تأليف

ابراهيم عبد القادر المازني

دار الشعب

اهداءات ٢٠٠٣

اسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

قصة حياة

تأليف
ابراهيم عبد القادر المازني

دار الشعب

قصة حياة

هذه ليست قصة حياتي ، وإن كان فيها كثير
من حوادثها : والأولى أن تعد قصة حياة
أبراهيم عبد القادر المازني.

مقدمة

فتحت عيني أول ما فتحتها في حدثتي على دنيا تنتزع الكرة من يد الطفل وتقول له : « أنتظن نفسك طفلاً ، له أن يلهو ، ومن حقه أن يرتع ويلعب ؟ لشد ما ركبك الهم يا صاحبي ! لا كرة ولا لعب . وعليك أن تثب الآن وثباً من هذه الطفولة التي كان ظنك أن ترتع في ظلها إلى الكهولة دفعة واحدة ! حتى الشباب يجب أن تتخطاه وثباً أيضاً » .

وأنكفي إلى أمي أسأله عن الكرة لماذا حرمتها دون غيري من لذاتي فلا تقول أنها آسفة ولا أنها ترضى لي ، أو أن قلبها يعصره الألم من أجلي ، بل تضع راحتها الرخصة على كتفي وتقول لي بصوت متزن : « اسمع يا ابني إنك لم تعد طفلاً ، وإنما أنت رجلنا الآن ، وسيد البيت ورأس الأسرة وكبيرها ! أي نعم . فقد ترك لنا أبوك مالا كان فوق الكفاية ولكن المال ذهب . ولم يبق لنا شيء » .

فسألتها : « هل معنى هذا أننا سنجوع ونعري ؟ » :

فلم ترحمني . وقالت : « قد نجوع ونعري ! من يدرى ؟ ولكن أملي في الله كبير . وعندى حلي ومتاع لا حاجة بي إليه . فسأبيع من هلا ونفقات ونكتسي . وستواصل التعلم — ما من هذا بد — حتى ينفد المال ، وينضب المورد . وعسى أن يكون بعد العسرسر . فما يئست من رحمة الله . ولكنني لا أرى أن نعتمد على غير ما بأيدينا ، وهو قليل فاعرف هذا ، روض نفسك على السكون إليه والنزول إلى حكمه » .

قلت : « ولا اللعب ؟ » .

قالت : « بلى ، ولكن بغير كرة نضيع فيها مالا بنا حاجة إليه لقوتنا . إن الكرة تشجع على الركض ، وتغري بالنط . فاركض بدونها ، ونط بغيرها وسترى أنك لن تخسر شيئاً » .

فمرت أركض لأن هذا واجبي ، وما تطلبه الحيوية التي لا تزال مقصورة على أعضائي . على حين كأن يركض غيري ، للهو والتسلية .

فعرفت في التاسعة من عمري - وهي سن غضة جداً - أن هناك واجبات تؤدي لذاتها ، وحتوفاً تقضى لأنها حقوق ، لا لأن فيها متعة ولذة : وأحسست من صغري أن شأني غير شأن الناس ، وإني فقير وأن كنت مستور الحال . ولكن الستر لا يبنى الشعور بالفقر وغضاضته ومضضه . فأرهف ذلك إحساسي ، حتى صار ينحني بمثل حد المبراة على قاي فيحزه ويقطعه . فترعت شيئاً فشيئاً إلى الإنقباض عن الناس ، واتقاء الخرض معهم فيما يخوضون ، مما يستدعي نفقة وتكون فيه كلفة .

وقوى هذا الميل في نفسي وعمقه أني بعد الذي سمعته ووعيته من أمي . قصدت إلى أخي الأكبر - وهو من غير أمي - وسألته عن مال أبينا أين وكيف ذهب ؟ فتال وهو يكاد يشرق بدمعه ، وأنا أنظر إليه جامد العين أنه هو الذي أضاعه ، وجر علينا هذه المحنة ، ولكنه يرجو أن يعوضنا خيراً مما أتلّف . فأحسست أني شبيت جداً عن الطفولة في تلك اللحظة !

وانصرفت وأنا أتساءل : أليس لكل امرئ حقه ؟ فكيف يتسنى لواحد أن يجني على جماعة ! وكيف ولماذا يجد الوسيلة إلى ذلك ؟ ..

وصرت أخاف الناس وأنظر إليهم شذراً . وإذا كان الأخ يجني على إخوته وأمهم وجدهم ، فما ظنك بالغريب الذي لا تصلك به رحم ، ولا تعطفه عليك عاطفة من قرابة أو نسب .. ؟ .

وأقبل علينا قريب لنا يقول إن في وسعه أن يرفع عن كاهلنا عبء

نفقات التعاليم ولكن « الواسطة » يطمع في جزاء أو « رشوة » فأبى أمى . كل الإساءة . فما زال بها حتى ملت إلحاحه ، فدفعت إليه ما يقاب . وغاب شهور الصيف . ثم جاءنا يقول إن الوزارة أعفنى من نصف نفقات التعليم ، فقلنا شيء خير من لا شيء . ولكنه كان كاذباً . وتبيننا أنه لم يرش أحداً ، وإنما استحل أن يسرق مالنا نحن الفقراء بهذه الخدعة .

فزاد سوء ظنى بالناس ، وانزويت عنهم ، وأقبلت على دروسى لأفرغ من التحصيل بأسرع ما استطاع ، فيتسنى لى بعد ذلك أن أكسب رزقى ، وأنقلد نفسى وأهلى من هذه الفاقة التى منينا بها لغير ذنب جتيناها .

وترك هذا كله أثره فى نفسى ، فاجتنب أن أعاشر إلا الذين أرى حالهم يشبه حالى أو يقاربه ، وصرت أشعر أفى غريب إذا ألفت بى المصادفات بين قوم من السراة أو الأثرياء أو المتظاهرين بالغنى ، كأنهم ناس من شاكلة أخرى ، وخلق مختلف . فكنت أنفر أشد النفور من مجالستهم أو مخالطتهم . ويكبر فى وهمى أنهم لا يخفى عليهم أفى نشأت فقيراً . وانى امتحنت فى صباى أقى امتحان ، وأن ما أراه من مظاهر غناهم ليس إلا تخيلة مقصودة يشقون لى بها جفونى ويطلعونى على ما بينى وبينهم من بون .

وكننت قد كبرت وأصبحت معلما ، وعندى فوق الكفية من الرزق فأشفقت أن يررثنى هذا عتده نفسية أو « مركب نقص » كما يسى . فعالجت ذلك بالقرء ، ورحت أعد الذين نشأوا فى حجر النعمة وظل اليسار ، من المنبوذين ، لأنهم متكلفون غير مخلصين لأنفسهم ولآدميتهم ، ولأنهم مترفون ، متطرون خرعون ، لا يعرفون شرف الكد ، ولا يدركون مزية الكدح والسعى ، وإنما يعيشون عيشة الفضول والتطفيل ، ولا يحبون حياة صحيحة ، ملأى بحركة الشعور والعقل ، فلا احتفال بهم ولا اكتراث لهم ، وأنا وأمثالى أحق منهم بالكرامة وأولى باستيجاب التعظيم .

وارتفعت بها السن شيئاً فشيئاً ، وزادت التجربة ، ورحب الأفق على الأيام . فأدركت أنى أسرفت على نفسي وعلى الناس . وثبتت أن لا داعي للمرارة ، فقد أفادتني المحنة صلابة وعزماً وثقة بالنفس وجرأة على الحياة والمغامرة فيها ، ولو كنت نشأت في نعمة صابغة لكنت حرياً أن يفسدني التلذذ ، ولا ذنب للناس جميعاً فيما كان من أحدهم أو بعضهم وفي الدنيا الصالح والطالح ، ومن الظلم أن يبوء البريء بآثام المذنب ، وأن تؤخذ الجماعة بجريرة واحد ، وكل امرئ يزل ، والعصمة لم يوثقها إنسان وحتى ما بنى أخى قمن بالغفران . فما هو في ذاته بالذي توعد دونه أبواب العفو ، وما عدا المسكين أنه طاش طيشة كان من الجائز أن أطيشها لو كنت مكانه وكان حبل على غاربى كما كان على غاربه ، وما أعرفه أفاد إلا متعة قصيرة وحسرة طويلة على ما ضيع ، وما أهلاه إلينا من الكرب الجسام ، فهو جدير بالثناء والرحمة والنعمة . وما شهدت النعمة التي تقلب فيها زمناً وجيزاً ، ولكنى شهدت الندامة التي ظلت تأكل قلبه بقية حياته ، وكنت على الرغم مما أساء أوقره وأنزله منزلة الوالد لأنه أسن منى ، ولكنه هو كان أشد توقيراً لى منى له ، وأعظم بى تحقيراً . ولما نشرت أول كتاب لى - وكان ديوان شعر - حملت إليه أول نسخة منه أخرجتها المطبعة ، فتناولها معجباً ، وقلبها جذلاً ، وشرع يقرأ ، فأراعنى إلا دمه المنهر ، من فرط الحنو والزهو . فنهضت لى زوجته وتشاغل بالحديث معها ، فما أطبق البكاء ، ولا أعرفه ، وإنى لأدري أن الدمع رحمة وأنه كما يقول ابن الرومى :

لم يخلق الدمع لأمريء عبثاً الله أدري بلوعة الحزن

ولكن قسوة الكفاح ومرارة الصبر على طول الحرمان ، جففتنا عبراتى وعلمتنى أن أبكى بقلبي دون عيني ، وأن أسترضعفى عن الناس ، فلا أبدو لهم إلا بصفحة وجه يقرأون فيها آيات الرضى والاستبشار والثقة .

والفضل في ذلك لأى ، فقد جثتها يوما أبكى لأن غلاما ضربني فأوجعني ،
خبطرت إلى باسمة ، ولم تربت على كفتي ، ولم تكفكف دمعى ، ولا واستنى
ولما قالت لى : « رجلنا يبكى » ؟ فإذا عسانا نصنع نحن النساء الضعيفات ؟
فخجلت ، ولم أكن خبرتها الخبر . فقلت - كأنما كنت فعلت - « ولكنه
أكبر منى » قالت لاشك ، ولكن حيلتك ينبغى إذن أن تكون أوسع ، فما
غلبني بعد ذلك اليوم غلام أسن أو أكبر جسما ، حتى خافنى صببية الحارة
وحرصوا على اتقاء شرى .

والعبرة بالحوادث - وقد انتقلت في الحال بعد طول الضنك إلى سعة
مرضية وخير كثير فالحمد لله على ما أنعم وبسر .

ورضيت عن الدنيا وانشرح صدرى للحياة ووجدت أن التسامح الذى
مبعثه الفهم وصحة الإدراك أجلب لسرور القلب وطمأنينة الخاطر ، وسكينة
النفس ، من تلك المرارة القديمة التى كان ينضج بها الوجه ويقطر اللسان .
والفيتنى أغتبط بأن أتلمس ما يروق ويسر من جوانب الحياة ، وأن أبرز
هذه الجوانب الوضيئة للناس وأشركهم معى في نعيمى بها ، وأحاول أن
أفتح لهم كوى تدخل منها الشمس فتضيء لهم وجوه العيش وتمنحهم
الدفء ، وتشيع الابتسام والجلد في وجوههم وقلوبهم ، وأن أقطف لهم
من أزهار الحياة ريحانا وآسا ونرجسا ، وأن أجمل ما كان يبدو لى ولهم
حميما ، وأزين العاطل ، وأرقق الماء في حواشى النسيم ليعود أندى على
القلب وأثلج الصدر .

وتوسعت في هذا وتعمقت . فقلت : إني مثل الناس غيرى ومنهم ،
وكلنا مجبول من طين واحد ، ولست خلقا قائما بذاته ؛ أو بدعا في هذه
الدنيا ، ومن الممكن أن أعرف الناس معرفتهم إذا أنا وسعنى أن أعرف
نفسى ، فصار دأبى بعد هذا أن أخلو بنفسي ، وأحاسسها ، وأراجعها ،
وأغوص في أعماق أعماقها على بواعثها ، وعلى ما تغرى بها غرائزها المهذبة

أو الساذجة ، وأن أقف على دواعي ضعفها ونقصها ، وأسباب قوتها ، وجعلت كدى كلما بدا لي ما يسوء ، أو يريب أو يسخط ، من أحد أن أحاول أن أضع نفسي في مكانه ، وأن أنظر ماذا كنت خليقا أن أصنع لو أنني كنت محله ، وكان يحيط بي ما يحيط به ، وكان لي مثل حظه الكثير أو القليل من العلم والتجربة ، فأصبحت فيما أعتقد - غير مغرور أو مغلوع فيما أرجو - أعدل وزنا وأكثر إنصافا ، وأسرع إلى تمهيد الغدر مني إلى سوء الرأي .

وليس معنى هذا أنني الآن أرى أن الدنيا وأحوالها على خير ما يمكن أن تكون ، أو أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان ، أو ما هو كائن . كلا . ولكني أرى أن معالجة الأسواء والفساد بحسن الإدراك ، وصحة الفهم ، والرفق والحسنى ، أجلى وأرشد . وماذا يفيد تعذيب النفس بالتسخط وتلهب الغضب واحتدام القمة ؟ . إن الذي له قيمة هو أن ندرك أن هناك ما يستوجب الإصلاح والتقويم ، وأن نهتدي إلى وسيلة الإصلاح ومداه وليست ثورة النفس بالنار تعين على هذا وتيسره ، فإنها خليقة أن تورثنا اضطرابا في التفكير ، وأن تجمع بنا إلى غير ما يشير به العقل ، وتصفه الحكمة . وإنما الذي يعين على الإصلاح والخير ، والتفكير الهادئ والتدبر الرصين ، وقياس مبلغ القدرة إلى الأمل ، وأصالة الرأي ، والخلق في التدبير ، ولا سبيل إلى شيء من هذا إذا احتاجت النفس ، وقامت قيامتها واثارت كالألجة المربدة .

ولماذا أكتب كل هذا ؟ ما صلته بموضوع الكتاب ؟ لا أدري ! سوى أنني لطول اعتباري أن أتدبر نفسي وأدير عيني في جوابها ، أصبحت أعتقد أنني أستطيع أن أعرف الناس بنفوسهم إذا وسعني أن أكشف لهم عن عيونهم صورة صافية - لا مزورة ولا مموهة - من هذا الإنسان الذي هو أنا ، والذي هو أيضاً كلى امرئ غيري . وليس هذا بالمطلب الهين ، وما كان مناله قط ، ولن يكون دانيا . غير أن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله ، وعلى المرء

أن يسعى جهده وعلى الله التوفيق ، وإن طاقة الإنسان محدودة ولكنه ليس عاجزاً كآل العجز ، ولو أن آكل إنسان أخاص وصدقت سريرته وبذل ما يدخل في وسعه ، لعادت الحياة أطيب وأبعث على الرضى .

وأحسب أن من بواعثي على هذا الاستطراد ، أنى أقول لنفعي إذا أنا لم أنفع بتجربتي وفهمي هذا الجيل الذى يفقد الخطى وراء جبلى ، فما خير أنى كنت وعشت ، وفهمت أشياء وجربت أموراً ، وألمت الحقائق ؟ إن من الأم الآرم أن تبذل بعلمك على غيرك . وقد يعذر الذى يضمن بالرخيف وهو جائع ، على رفيقه ، وفى الطباع الإنسانية أن يؤثر المرء نفسه ، فى خصاصته ، على غيره وقد يبلغ المرء من الحرص على الذات فى المحنة أن يخطف اللقمة من فم ابنه وهو ضئوه وفلذة كبده لأن النصور وخوف التلف الوحى يثيران غريزة حفظ الذات فيبدل الإنسان عن واجب المروءة ، وواجب الأبوة ، ولكن المعرفة ليست مادة يحفظ بها البدن من الوبال ، وهى لا تنقص بالشيوع والاستفاضة ونصيبك منها لا يقل إذا بلغ فيها غيرك مبلغك ، وفى وسعك أن تهذى منها ولا تخش عليها النقص ، ومن المحقق أنك أخرى أن تكون أسعد إذا صار الناس أعلم وأقطن وأوسع مدارك وألطف حسا .

فالضن بالمعرفة ضيق عقل وسوء رأى ، ولو لم نفس وخسة طباع — بلا مسوغ ما ، ولا فائدة ما — لأن الناس يصلون إلى المعرفة أردت و ألم ترد ، وبمعونتك أو بغيرها . فما أنت فى الدنيا بالوحيد الذى ينظر فيجد ، ويبحث فيتهدى ، ويعالج فوفقى .

وأمر آخر أردته ، وأظنه مما ساقنى فاستطردت . ذاك أن الناس أشباه متماثلون وإن تفاوتت بهم الأموال ، وليس اختلاف النشأة بمانع أن تكون التجربة من معدن واحد ، وإن كان المظهر يوقع فى الروع لأول وهلة أن الخبر شىء آخر .

تلك كانت حياتى - فقد نشأت فى بيت صارم التقاليد فى ساحته الواسعة
مصلى ومبضاة ، وعلى جانبيه مدخله غرف لإقامة الأتباع والتلاميذ والمریدین ،
وكانت آخر هذه الحجرات ، مما يلي الساحة مباشرة - غير مسقوفة ، وكانت
تتخذ اصطبلًا لمن له بغلة أو فرس أو حمار ، وبعد المغرب من كل خميس
يجتمع المفرقون من هؤلاء الأتباع فى المصلى ، ويتلون « الورد » وهم قعود
ثم يذكرون الله ، ثم يقومون إلى صلاة العشاء ، ثم إلى الطعام فالخولة ،
وفى الفجر يخرجون إلى مقبرة الشيخ الكبير .. وهناك يتلى « الورد » مرة
أخرى ، وتعقد حلقة الذكر .. ثم يؤكل « الفول النابت » والخبز .

وكان يروى هذا ويستولى على خيالى ، فأشاركهم فيه ، وأتلى الورد
الذى يتلونه ، وأصلى على النبي كما أراهم يصلون ، وأهز رأسى وجسمى فى
الصف عند « الذكر » كما يفعلون ، وأحاول - عبثاً - أن أجعل صوتى
غليظاً عميقاً ، وأرافقهم فى الفجر إلى المقبرة ، وأزید عليهم فأعرج على قبر
أبى فآزوره ثم أرتد إلى الحارة واللعب ، والقلب راض والنفس ساكنة .

ولم يكن هذا بيت أبى ، وإنما كان بيتا يسع من شاء من الأسرة
أن يذهب إليه ويقيم فيه ، فقد كان واسعاً كبيراً ، فلما مات أبى وسامت
حالنا بعده ، اتخذنا لنا فيه شقة اقتصاداً فى النفقة ، وعز على ذلك فى أول
الأمر فقد كان لنا بيت خاص لا يشاركنا فيه مشارك ، وكان عندنا الخادم
والخادمة والبواب والبستاني ، ومن العجيب أنى أذكر مدخل البيت وساحته
الرحبية وحديقته والنافورة والحجرات من حول ذلك ، وفيها مكتب

أبي ومكاتب الوكيل ومساعديه ولكن ماعدا ذلك بهتت صوره ، وأذكر
أنى كنت أدخل على أبي فى مكتبه وعنده أصحاب النضايا ، فأقف إلى
جانبه وهو مكب على الورق ، وأنا ساكت لا أقول شيئاً ولا أتحرك ، حتى
يرفع رأسه ويمد يده إلى فنجان القهوة ، فأقول بصوت خفيض « أبويا .
أبويا . أبويا هات قرش .. » فيضع يده فى جيبه ثم يخرجها بما تخرج
به - بقرش أو نصف فرنك ، أو أقل أو أكثر - فأتسلل بما أعطيتني ،
فألقى أخى الأصغر ينتظرني عند الباب ، فنخرج إلى الحارة حيث نجد
بائع الدندرمة .. فنندفع إليه مامعنا ، وتأكل حتى نشبع ونحمد الله ، أو
لأنحمد فتميل على دكان مجاورة لبيتنا فنشترى كرات ولبيا وما إلى
ذلك - نبدد الفلوس والسلام وكان أخى أصغر منى وكان جميلاً مشرق
الديباجة سميناً وبضاً غضاً ، فكان أبى يخاف عليه أن تصيبه العين ، ومن
هنا أمر ألا يدخلوه عليه فى المكتب لئلا يراه ذو عين فيحصله فاتفق يوماً
أنى كنت عند عمى ، فلما مر « بائع الدندرمة » أقبل عليه الغلام
بالطلب كالعادة ، فناوله من مثلجاته ، ولم يجد أخى معه ثمن ما أكل ،
فخلع طربوشه . وعرض على الرجل أن يقبله بديلاً من الثمن وكان أخى
ولا يزال عظيم الرأس ، فطربوشه يصلح للكبار ، فضى الرجل به ولم
يعد بعدها لسوء حظه .

ومن الصور التى لا تزال ماثلة أمام عيني ، أن جدى دخل على أبى
فى مكتبه يتوكأ على عكازه ، فنهض له أبى واقفاً وأفسح الزباين له
ليقعد ولكنه لم يفعل والنفت إلى أبى وطلب منه شيئاً ، فاستمهل هذا
فما كان من الجلد إلا أن رفع « العكاز » وأهوى به على كتف أبى ، فتأوه
واختبأ تحت المكتب ، وانصرف جدى غاضباً ساخطاً يلعن العقوق ،
وعاد إلى كرسبه فى مدخل البيت .

وكنتم أنا حاضراً هذا الذى حدث ، فشق على أن أرى جدى يضرب

أبى بهذه المراوة الضخمة ، فخرجت إليه فناداني وأدنانى منه وأجلسنى
على حجره وشرع بلاطفنى ويدعوى لى ، ولكنى كنت مغيطاً محتقاً فتناولت
شعرات من لحيته الكثة وشدتها وفى نيتى أن أنتفها كلها عقاباً له ،
فزجرنى وأدار وجهه ورفع يده له لتخايص لحيته ، فبدأ لى قذاله فصفعته
فطار عقله ودفعنى فارتميت على الأرض ورأيتة يميل على هراوته ويتناولها
فوضعت ذيلى بين أسناني وانطلقت أعدو .

وقد ظل جدى شهراً يأبى أن يكلمنى أو ينظر لى ، وأنا أكاد أجن
من ثقل الشعور بالحرمان من عطفه ، فلما فاءت نفسه لى الرضى كتب لى
حجاباً وجالده - حفزاً له من التلف - وعلقه على جنبى الأيسر ليقبى
الله سوء الأدب ، إذا كان قد وقع فى روعه ووقر فى نفسه أن الناس حسدوني
فكان منى هذا الذى أسخطه لى .

وكان شر ما يمكن أن يعاب به الواحد منا نحن الصبيان ، أن يراه
أحد واقفاً يحدث بنتاً أو يلاعبها . يا حفيظ ! ولد يلعب مع بنت . . .
هذا لثم كبير ومعصية توصل من دونها أبواب الغفران ، فإنه عيب وسوء
أدب وقلة حياء وفساد تربية وأشنع من هذا وأبلغ فى العيب وسوء الأدب
أن تلعب البنت فى الشارع أو فى ساحة البيت ألا تكفيها حجرات البيت التى
تطل نوافلها على الطريق وعلى فناء الدار . . . وصحيح أن الشبايك
مسمرة ؛ ولكن النظر من الثقوب ميسور وهذا يكفى ؛ بل كان من
العيب أن يرى الرجل زوجة أخيه إذا كانت غريبة أو من غير قريباته .

وتغرب الشمس فيج معنا الخادم من الشارع ، وبهش علينا كما بهش على
الغنم أو الدجاج ، ويردنا إلى البيت والحجرات ذات الشبايك المسمرة مخافة
أن يخطفنا أحد إذا بقينا نلعب فى الحارة ؛ أو يصادفنا « السماوى » فيبتنا ،
أو يظهر لنا عفرية فيركبنا أو برعبنا أو يفعل بنا غير ذلك مما تفعل
العفاريت ، ويكون الحر شديداً والليل جميل وتزهق أرواحنا فى الغرف

المكتومة ونشهى أن ننعم بالليل والسماء الحافلة بالنجوم الخفاقة اللعان ،
ولكن لا سبيل إلى ذلك .

وكانت بنت خادمتنا فى مثل سنى ، فكنت أتوق إلى ملاعبتها بعد إذ
نهش إلى الغرف فى الليل فتأبى أوى وأمها ذلك علينا وتصرفاتنا عنه لأنه عيب ،
وتجر الخادمة بنتها إلى حجرتها — تجرها من أذنها وتشد عليها وتقرصها
وقد تضربها علقه ، ونجرفنى أوى من يدى أو من شعرى إذا حزنت ، أو تحملى
وأنا أضرب بيدي ورجلى فى الهواء وأصرخ وأصيح وقرقدنى برغم أننى على
السريـر وتغـطىـنـى بالاحاف وتروح تحدثنى عن العناريت وتصف لى ما تصنع
بالأطفال الذين « لا يسمعون الكلام » ولا يفعلون ما يؤمرون ، وتروى لى
قصصاً يقف لها شعر الرأس ويتقبض الجلد عن « المريعة المرتررة » و « أبى
رجل مسلوخة » وغيرهما وغيرهما فأنضاعل ويدخل بعضى فى بعض ، وتهم
بأن تركنى وقد اطمأنت إلى سكونى ووثقت لى غير مفارق فراشى قى لى
تلك ، فأصيح بها وأناديها وأدعوها أن تبقى إلى جانبى لأن « اللحاف » يحرق
فى بعينين تقدحان شرراً ، أو لأن دهان الحائط يبدو لى عليه رسم يشبه
ما سمعت من أوصاف أبى رجل مسلوخة فأنا أخاف أن يتجسد ويخرج من
الجدار ويميل على بأسنانه وأظافره .

وبعد لأى يغلبنى النعاس فأنام وأنا أحلم بالعناريت والإساخ والليل المخوف
والنهار الذى يعيد الطمأنينة ، والسلام المظلمة وما يخجىء لى عندها ، ولم تكن
أحلامى تخلو من متع منغصة ، وما أكثر ما رأيت فى منامى أنى لاعبت هذه أو
تلك من البنات وأن أهلى دهنونى بالسمن والعسل وقيدونى ورمونى فى ركن
حالك السواد وتركونى للحشرات وغيرها من المؤذيات والمرعبات .

ويصبح الصباح فأحمل إلى « الكتاب » حملاً ، وهناك توضع قدمائى فى
« الفلقة » ويهوى عليها « سيدنا » — فقيه الكتاب — « بالجريدة » أو « المقرعة »
أو بكل ذلك إلى مساعده « العريف » وبهنا يبدأ النهار .

لم يطل مكثي في «الكتاب» لأن أمي أصرت على المدرسة . وكان أبي مشغولاً عنا بزوجة جديدة وكان عمله يضطره إلى السفر إلى «استنبول» فكان يقضي هناك ماشاء الله أن يقضى - شهوراً أو عاماً أو قرابة ذلك - ثم يعود ومعه زوجة . وأحسبه كان يضطر إلى الزواج اتقاء من الإثم . ولكن الغريب أنه كان إذا احتاج إلى السفر مرة أخرى ، يحمل معه الزوجة ويسرحها هناك ويبيعها بغيرها وأظنه كان يحب التركيات ويؤثرهن على سواهن ، وعسى أن يكون قد راقه منهن بياضهن وحسن التدبير والنظافة والطاعة والأدب ، فإن يكن ذاك فما ورثت عنه إلا نقيضه ، ولست أعني - كما لا أحتاج أن أقول - أني أحب الوساخة وسوء التدبير وقلة الأدب والعباد بالله ، وإنما أعني أن اللون الأسمر أثر عندي وأحب إلي ، وأنه إذا اجتمعت اثنتان واحدة بيضاء والأخرى سمراء ، وكاتتا من الحسن في منزلة واحدة ، فالسمراء عندي أجمل وأندى على القلب ، وعسى أن يكون هذا من التعصب لأمي ولفسفي ، فلنأسمر - أو إلى السمرة أقرب - ولعلني أكره أن ترهى على واحدة بياض جلدها ، ولكن هذا شطط فلأرجع إلى ما كنت فيه :

ولم تكن الزوجة الجديدة من استنبول وإن كانت تركية ، وكان لها ولد من زوج سابق ترك على أرنية أنفها آثار أسنانه ، ذلك أنه عض أنفها في ساعة من ساعات الغضب أو الجنون ، وكانت أسنانه نضيدة فتركت حزراً واضحاً . ولبعض الناس ولع بالأنوف في ساعة الغضب ، فقد كان لي قريب يتناول أنف زوجته إذا ساءه منها فعل أو قول ويهزه يمينه ويسرة فيدور رأس المسكينة ، وتتساقط دموعها :

ولم يهجر أبي (البيت الكبير) في سبيل هذه الزوجة الجميلة - فتد
كانت جميلة والشهادة لله ، وكان الرجل معزوراً - ولكنه كان يقضى
عندنا ليلة ، وعند هذه الزوجة ليلة ، فأما ليلته في البيت الكبير فكان
يقضيها مطرقاً يسمع التقريع والتأنيب من جلدى تارة ، ومن أمى تارة
أخرى ، وكان عظيم الحلم ، طويل البال قليل الكلام ، فكان لا يزيد على
الابتسام ، وهذا ما خالفته فيه أيضاً ، فإني أحقق طياش سريع الغضب
حاد الطبع وثرثار لا يفرغ الناس من هذره ، ومن الإنصاف لأبي أن
أقول إنه ما بين شغله بزوجته الجميلة وما يكابده في البيت الكبير فضلاً
عن عمله المضي ، لم يبق له وقت يعنى فيه بنا نحن بنو الصغار ، وكان لنا
أخ كبير غير شقيق أذاق أبانا الأمرين وأراه النجوم في الشهر الأحمر ،
ومن حوادثه التي تروى أنه كان يصلي الفجر في مسجد الحسين ، فخرج
مرة إلى صلاة الفجر على عادته فألقى باب المئذنة مفتوحاً ، وكان المؤذن
شيخاً هرمًا ضخماً الجسم ، كالقمل الصغير ، وكان أعمى ، فخطر لأخي
أن يعاينه فصعد على أطراف أصابعه ووقف وراء المؤذن المسكين الذي
لا يدرى أن وراءه هذا الشيطان ، وأنه ليرفع الصوت بالآذان وبصيح
في سكون الليل (حتى على الصلاة) وإذا بصوت من ورائه يرتفع فجأة
ويصبح متمماً (حتى على الفلاح) فريع الرجل وله العذر ، وكان ضخماً
كما قلت ، وعلى صدره قنطار من الشحم ، وكانت صلعة المفاجأة عنيفة
فسقط مغشياً عليه وميتاً على قول ، ولم يضطرب الأخ المحترم بل أتم
الآذان وانحدر إلى المسجد للصلاة ثم احتال فأغرى خدام المسجد بالبحث
عن المؤذن المسكين وانصرف هو إلى بيته قرير العين راضياً عن نفسه
ونام نوم الصالحين .

وكان أبي في وقت من الأوقات مدرساً للغة العربية في المدرسة
الخديوية فألحق بها ابنه ليكون تحت عيونه ، فكان هذا الابن البار هو

اللى زهد أبى فى التعليم فنفض يده منه واشتغل بغيره ، ولم يطل بقاء
أخى فى هذه المدرسة فقد طردوه فأدخله أبوه مدرسة صناعية ، أو زراعية
لا أذكر وكان يبيت فيها فصار يغرى الطلبة زملاءه بالخروج فى فحمة
الليل ، وكان يربط البطاطين بعضها ببعض ، ويدليها من النافذة ويتخذ
منها هو وزملاؤه حبلاً يتعلقون به ، ويتدلون وبه يصعدون أيضاً حين
يعودون مع « الديكة » وظهر الأمر فاشتجر أخى مع ضابط المدرسة ،
وتماسكا وتضارباً فانكسرت رلى الضابط ولا آخر الحوادث هذا الأخ
وتبد ظل إلى آخر لحظة من حياته مولعاً بالعبث .

وكنيت فى السادسة أو حوالى ذلك لما أخرجتنى أمى من « الكتاب »
وبعثت بى إلى مدرسة عجيبة الحال ، تمهيداً لإدخال مدرسة حكومية ،
ذلك أنها كانت مدرسة بنات ، ولكن فيها « فصلاً » واحداً للصبيان ،
وكانت صاحبة المدرسة « خياطة » ومن هنا معرفة أمى بها ، وإرسالى إليها
وكان يساعد هذه السيدة رجل قصير نحيف ولكنه غليظ الكبد ، وكل
ما أذكره أننا لم نكن نرى البنات أو نختلط بهن ، بل كنا نوضع فى حجرة
ضيقة ، توصل علينا بالمفتاح ؛ فكانت هذه الحجرة هى المكان الذى
نتلقى فيه الدروس وهى الساحة التى نالعب فيها ، وإليها يجيئنا طعامنا ظهراً
وكنا إذا تركنا المعلم نرحل الأدراج عن موضعها . لنفسح مكاناً لنا
ونحن نتقاذف الكرة أو نجري « البلى » على البلاط ، وما أكثر ما كسرنا
زجاج النوافذ وغرم آبؤنا ثمنه .

وكان مساعد المدير رجلاً فظاً كما قلت - إذا أخطأنا أو قصرنا -
يأمر الواحد منا أن يخلع الطربوش ثم يضربه على رأسه العارى
بالخيزرانة . وكنا فى الفصل سبعة أو ثمانية ، فحدث يوماً أن أوسعنا ضرباً
على رءوسنا فثرنا به من فرط الألم ، وتمردنا عليه وأشبعناه لكساً وركلاً ،
ومزقنا له سترته الطويلة - الاستانبولين - وخطفنا العصا من يده وأذقناه

وقعها على أصابع يديه وعلى ركبتيه ولا أحتاج أن أذكر أننا طردنا وأن المدرسة استغنت بالبنيات الوديعات عن الصبيان الملاحين .

وكان ابن زوجة أبي ممي في هذه المدرسة ، فلما طرد كما طردت ، وكان الوقت قبل الظهر خاف أن يذهب إلى أمه بالخبر ، فأشرت بأن لا يفعل ، واقترحت أن نبحت بقية يومنا عن مدرسة أخرى ندخلها ، فنخرج من هذا المأزق ، فوافق ففعلنا ، واهتدينا إلى مدرسة في شارع « تحت الريح » أو « درب سعادة » لا أذكر ، وكان من الغريب أن صاحبها قبلنا بلا كلام أو سؤال أو مراجعة .

وبعد نحو أسبوع عرف أبي ما كان ، فلم يقل شيئاً ولكنه أخرجنا من هذه المدرسة وألحقنا بمدرسة أخرى في شارع محمد علي ، مقربة من القلعة وتسمى مدرسة « القرشوللى » وأظن أن زوجته هي التي هدته إليها وأشارت بها ، فقد كان صاحبها تركياً ، وفي هذه المدرسة كان الضابط - وهو تركي أيضاً - يجلدنا بالسوط ، ولا نكران أنه كان يترفق بالصغار أحياناً ولكن السوط كان في يده ، وكان يكفي أن يلمسنا بطرفه وقد بقيت بهذه المدرسة إلى آخر العام واجتزت امتحانها ، ولكن صاحبها أبي أن يتقانى إلى « فصيل » أرقى ، لأن صغير السن ، فبقيت في السنة الأولى عاداً آخر بلا موجب سوى حذلقه هذا المدير أو الناظر الذي استفضأ جسمي واستصغر سنّي ، واستكثر على السنة الثانية من أجل ذلك .

وكنت أعود عصر كل يوم فأرمي كتيبي وكراساتي ، وأخرج إلى الشارع لألعب مع أقراني ، فأزجر عن اللعب فأصعد وأطل على اللاعبين من الشرفة ، وبني حسرة ولهفة . وأسمعهم يصفونني ، « بالعقل » و « الملدوء » فألعن « العقل » وأذم « الملدوء » فقد كنت مكراها على ذلك لمدفوعا إليّه بطباعي وميولي ، ومتى رأيت طفلاً ساكماً قليل الحركة ، فاعلم أنه مريض

أو ضعيف أو ممسوخ ومتى يلعب الواحد ويجري وينط إذا لم يفعل ذلك في طفولته .

ويدخل الليل فأجلس قريباً من المصباح وأفتح الكتاب وأقرأ خوفاً من السوط لارغبة في التعليم ، ويراني أبي فيشتق على عبي أن تؤخيهما القراءة في الليل ، فينهاني عنها ، فأطوى الكتاب وأسكت ، وأضيق ذرعاً بهما الصمت ، فأفتح فمى وأهم بكلام فينهاني أبي وينهرنى ، ويقول لى : « لا تقاطع الكبار ، ولا تحشر نفسك معهم » فأقول أنه ليس هنا صغار أحشر نفسى معهم فمع من أتكلم ؟ فيعيبس ويضع أصبعه على فمه ، فأسكت ثم ينفد صبرى فأعود إلى الكلام فيقول لى ألم أقل لك إن هذا الكلام لا يليق . فأعترض بأبى أراه يتكلم وأرى أمى تتكلم فلماذا يليق بهما ما لا يليق بى . فيبتسم ولا أدري لماذا . ويربت لى على كتفى وخدى ، وقد يقبلنى ويمسح لى شعرى ، فأتأمل وأقول له إنى أريد أن أتكلم وألعب فمع من ١٩ بنت الخادمة لا يليق أن ألعبها لأنها بنت ، وأخى أصغر منى بأربع سنوات وهو على كل نائم :

فتحملنى أمى إلى الخادمة ، وتوصيها بى ، وتتركنى معها ، فتسرى عنى بحكاياتها وأحاديثها حتى يغلبنى الناس :

وكنت أرى أبى يدخن وهر متكىء بكوعه على غدة فيتلوى الدخان فى جو الغرفة ويتلوى خياله على الحائط ، فأتبعه بعينى تارة ، وبأصبعى تارة أخرى . واشتهيت مرة أن أفلد أبى : فجئت بورقة ولففتها على صورة السيارة وجعلت أضعها فى فمى وأنا متوكىء على الوسادة وأنفخ كما يفعل أبى ، ولكنه لم يكن هناك دخان يتصاعد ويتلوى ، فأشعلت عود كبريت وأضربت النار فى اللفافة واتفق أنى وضعتها على الوسادة فاتصلت بها النار وامتدت إلى حشوها من القطن تحت الكسوة ففزعت وخرجت أعدو ، وأختبأت وبعد قليل كانت النار مندلعة فى البيت ، وكان

كل من فى البيت ىجرى بالطشوت والأبارىق والقلل لإطفاء الحرىق فلم
ىجد ذلك شىئاً وامتدت النار إلى غرفة أخرى ولم تكن شركة الماء قد مدت
أنابىبها إلى البىوت . وكان السقا ىمر بنا كل يوم فىبلاً لنا الأزیار والطشوت
وما إلى ذلك من الأوعية وكانت وسائل الاتصال بطیئة ، ولاسىا فى
الأحیاء الوطنیة ، فلا تلیفون ولا ترام ولا سىارات ولا شىء إلا الدواب
ومركبات الخیل وكانت إدارة المطافىء تتقاضى خمسة جنىهات إذا دعیت
لإطفاء حریق . على أنى لا أدرى بماذا كانت تطفىء الحرائق ولاماء هناك
ىجرى فى الأنابىب . فإذا قلت إن البيت احترق ، وأن الحارة كلها شبت
فىها النار فلا یصدقنى القراء ، والمثل ىقول « یعملها الصغار ویتع فىها
الكبار » أى والله :

كان لأخى الأكبر زوجتان من قريباته تقيان معنا فى بيت واحد لهما منه الدور الأوسط ، ولنا جدتى وجدى وأبى وأمى - الدور الأعلى - وللمكتب الغرف - أو المناظر - التى كانت فى ساحة البيت ، أو فناءه . وكان أخى - كائى - مزواجاً . فأما أبى لأعرف لماذا كان هكذا ، فما أعرف فى أسرتنا كلها من كانت له زوجتان فى وقت واحد ، أو من طلق زوجته أما أخى فقد يبدو من المستغرب أن يتخذ امرأتين فى حياة أبيه ، وهو لا يكسب قرشاً بعرق جبينه ، ولا مورد له إلا مايجود به عليه الوالد ، ولهذا يحسن أن أقول ، إن أباه وزوجه وهو صغير - كما كانت العادة فى ذلك الزمان - ليفرح به ، وكانت ليلة الحلوة ليلة سوداء أعنى أن السراشق أقيم ، وأضيئت الأنوار ونشرت الرايات ، ومدت الموائد ، وراحت الموسيقى تعزف ، وشرع المغنى يصعد إلى « التخت » وإذا بنبأ يمجىء من سمخراط أن للرحوم إبراهيم أفندى الوكيل توفى فجأة ، فأطفئت الأنوار ، وانفض السامر وشرع الذين كانوا فى جلدل وسرور وحبور ، يتهيأون للسفر إلى المآتم .

ومضت سنوات فلم يعقب أخى نسلاً ففاق أبى ، وقال قائل إن الزوجة عاقر ، وقال آخرون قد يكون العقم علته من « الولد » فما العمل .. العمل أن يزجوه من أخرى على سبيل التجربة وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان وقد كان ، ولكن « الولد » - أعنى أن أخى - ظل لا يعقب شيئاً ، ولم يغد من هذه التجربة ، إلا أنه صار ذا زوجتين .

وعلى ذكر العقم ، أقول إن أخى هذا وشقيقته ، عليهما رحمة الله ، من أخرى ماتت قبل أن يتزوج أبى أمى ، وقد شاءت الأقدار أن يكون نسلها عتياً ، وأن يحرم ابنها - أخى وأختى - بعض زينة الحياة الدنيا وأن يقاسيا من جراء ذلك ما يقاسيه كل راغب في الذرية ، وكان بلاء أعظم ، فقد اضطرت أن تصبر على الحرمان ، وأن تحتل ما يديه بعلمها من اللفتة على البنين وأن تنصح له بالزواج ، فلما فعل ورزق طفلاً طلق أمه - أو ماتت لا أدري ، فتولت هي تربيته وتبنته وتعهدته وأولته ما انطوت عليه نفسها من عطف الأمومة المخنوقة وحفظ لها هو ذلك ، فكان أبر الناس في حياته وأحنهم عليها وأعمقهم حزناً لما وافاها الأجل .

وأعود إلى أخى بعد هذا الاستطراد فأقول إنه كان على هذا لا يجرؤ أن يسهر ، أو أن يدخن أمام أبى ، فتد كان السهر والتدخين محرمان على غير جلى وأبى ، فأما جلى فكان يتخذ ما يسمى « الشبك » - بضم الشين والباء - وهو قصبة طويلة جداً نحو ذراع ونصف ذراع يتصل بآخرها بحشى شئ بالدخان وتوضع عليه الحمرة . وأما أبى فكان يتخذ السجاير ولكن ما كان مباحاً لهما ، كان محرماً على سواهما - لا أدري لماذا - وإن كان أخى ذا زوجتين .

وقد رأيت أخى مرة يدمس السجارة في جيبه وقد خرج عليه أبى فجأة فتحرق الحبيب ، فيطبق عليه أصابعه ليخمد ما اضطرم .

وما أكثر ما كان أبى يضربه ، لأنه يسهر ، ويدخن ، ولكن العلة الكبرى كانت لما هو أدهى من السهر والتدخين ، حدثني أخى بعد أن كبرت وأصبحت رجلاً مثله لى شاربان أفتلها ولحية أحلقها ، قال : (لم يكن باقياً على العيد إلا بضعة أيام ، فخطر لى أن أقص شعري قبل أن أذهب إلى الحمام) - وكان أخى مغرماً بحمام السوق أو الحمام التركي ، يؤثره على ما عداه - وكنت قد مللت حلاقنا ، وكان شيخاً وقوراً له لحية كثة

هائجة لا يعنى بتشذيبها وتقليمها ، وسُمت فوطته الحمراء المخططة ، والبطشت
الذى يضعه لى عند رقبتي ويترك لى حبله ، فيسيل الماء الذى يصبه على
رأسى بلا حساب ، على ثيابى وينفذ إلى بدنى ، فقلت التمس حلاقاً آخر ،
وذهبت أجوب الشوارع وعينى على دكاكين الحلاقين ، حتى خرجت من
الأحياء الوطنية ودخلت فى الشوارع التى يكثر فيها الأجانب ، واهتديت إلى
حلاق أجنبى ، فتوكلت على الله ودخلت فأقبل على يرحب بى ، وأجلسنى
على كرسي وثير لا عهد لى بمثله ونشر على صدرى فوطة بيضاء مكوية ،
لها كمان يدخل فيها ذراعاي ، وقص شعرى ، ثم نفص الفوطة وجاء بغيرها
وحلق لى ذقنى بماء الكولونيا ، ثم راح يقترح على أن يصنع كيت وكيت
بما لم أكن أعرف مثل « الماساج » و « الشامبو » إلى آخر ذلك ، وأنا جذل
أهز له رأسى أن نعم ، كلما عرض على شيئاً من ذلك ، ثم قال : « مانيكور »
فهزرت رأسى موافقاً وإن كنت لا أعرف ماذا يعنى ، فدعانى إلى ماوراء
ستار ونادى فتاة شقراء حلوة لا أدري من أى الفراديس جاءت ، وقال لها
كلاماً فابتسمت لى وتناولت كفى الكبيرة الخشنة التى ينطى ظهرها الشعر ،
وعكفت على أظافرى تنظفها وتقصها ، ثم تناولت شيئاً جعلت تدهنها لى به
وأنا أكاد أموت من الحجل ، وصدقنى حين أقول لك إن هذه أول فتاة
غربية لمست كفها كفى ، فإذا أضفت إلى هذا أنها كانت ساحرة الجمال ،
ذهبية الشعر ، وضاعة الحيا ، مشرقة الجبين ، نظيفة الأسنان ، وأن
ابتسامها فاتنة ، وفى صوتها علوية تذيب المرء ، وأنها هيفاء ممشوقة ،
وخفيفة لطيفة ، وأن فى نظرتها لبناً يغرى بتطويقها وضجها ، وأنى ما عرفت
من النساء إلا البدينات اللواتى يخفقن روجهن ما عليهن من أكدهاس اللحم — إذا
أضفت هذا كله — فإن فى وسعك أن تدرك عذرى حين أقول لك إنى عشقتها .
ولم أستطع أن أقول لها شيئاً .

وكننت أنظر إليها كالأبله ، ثم فتح الله على ، وأطلق لسانى من عقاله
فقلت وأنا مضطرم الوجه من الحجل : إنى لم أكن أدري أن المانيكور هو

هذا ، وإني آسف فإن كفى كبيرة كالرغيف وعليها غابة من الشعر ، وأحسب أنه لا يليق بي أن أدعها تصبغ لي أظافري ، فإني أخشى أن أضطر إلى إخفاء يدي حتى يذهب هذا اللون ، وهممت بأن أنزع يدي من يدها ، فشدت عليها ولم تركها لي ، وقالت بأعذب ابتسامة رأيتها في حياتي :

إنه يسرها أن تنظر إلى هذه الكف الكبيرة الخشنة ، وإن أكثر ماتري من الأكف لين بض غض كأكف النساء ، فلم أدر ماذا أقول لها في جواب ذلك ، ولكنني أنفت أن تصبغ لي أصابعي ، وأبيت أن أناولها يدي الأخرى وقلت حسبي واحدة ، وسألها : متى يزول ذلك ؟ فقالت : « أوه ! إنه لا يدوم . . لا تخف » فاشتيت أن أقول لها أني أحب أن أراها مرة أخرى ، ولكن لساني وقف في حلقى ، فلم أنطق بحرف ، واكتفيت بأن أمد لها يدي مصافحاً ، فوضعت فيها راحتها الصغيرة فهزتها كأنما كنت أصافح رجلاً فأدهشني أنها قالت :

« أرجو أن أراك » فكان جوابي السخيف : « ولكني لا أستطيع أن أقص شعري كل يوم » فابتسمت وخيل إلى أنها تكاد تميل على وقالت :

« إني أخرج من هنا كل يوم الساعة السابعة مساءً » ، قلت :

« آه ! إذا كان هذا فسأنتظرك على الرصيف الآخر .. كل يوم » .

قال أخى وهو يقص على هذا الخبر : « وقد كان . . تعلق بها ، وصرت أراها كل يوم فنذهب نتمشى ، وعرفتني أشياء كثيرة لم أكن أعرفها ، ولو استطعت أن أتزوجها لقلعت ، وقد أطلعني على كل شيء ولم أخف عنها شيئاً ، ففهمت وعدت ، وبقينا صديقين حوالى عامين حتى خطبها واحد من أبناء جنسها ، وأحسست منها زهداً فيه ، فأقنعها بالرضا به إشفافاً عليها ، ورغبة في الاطمئنان على مستقبلها .

ولكن هذا موضوع آخر ، فلنرجع إلى المانيكور ، وكانت يمتأى
لسوء الحظ هي التي صبغت أظافرها ، فلما عدت إلى البيت وقابلت أبي
تناولت يده لأقبلها ، فسألني :

ما هذه الحناء التي في أصابعك ؟ فأخبرته بما حدث ، وفي ظني أنني
لم أصنع سوءاً ، وما كنت أعرف ما هو المانيكور ، وقد قلت له : إنني
لما عرفت ما هو أبيت أن أصنع أظافر يدي الأخرى ، ولكن وجهه أريد
وهو يقول :

« وما فرق ما بينك وبين النساء الآن » ونهض فدعا إليه الخادم
« العم محمد » كما نسميه وأسر إليه شيئاً فخرج ، وما لبث أن عاد ووراءه
ثلاثة من الزبائن الأقوياء ، فأشار إلى فربطوني بالحبال ، وألقرني على
الأرض ، وأنا من فرط الذهول لا أقاوم . وجاء أبي بخيزرانة طويلة
وأهوى بها على ، لا يتقى شيئاً ولا يبالي أين وقعت وماذا أصابت من بدني
ولم يتقلني إلا خالتي (يعني أمي ، فقد كان يدهوها خالتي) فقد
أسرعت وانحدرت إلى ولم تبالي هؤلاء الزبائن ، ولم تعبأ بظهورها
أمامهم سافرة وفي ثياب البيت ، وارتمت على ، وجعلت نفسها بيني وبين
الخيزرانة فاضطر أبي أن يكف ولكنه أمر فسجنت في إحدى « المناظر »
ثم خرج .

وأنتم أنا الحكاية فأقول إنني توجعت لأخى وحزنت لما أصابه من
الضرب الأليم ، وما هو فيه من السجن ولم يكن أحد يستطيع أن يصنع
شيئاً ، وإلا حل به غضب أبي ، ولكنني كنت طفلاً لا أدرك هذا إدراكه ،
فصممت على إخراج أخى من محبسه وفك وثاقه . وكان لابد من الحيلة ،
ولكن الأطفال شياطين فدبرت الأمر مع أخى الأصغر ، وجيليلة بنت
خادمنا ، وكان مفتاح « المنظرة » مع الخادم فلم نزل به نلاعبه ونهجين منه
غفلة حتى سرقت المفتاح ، وأوعزت إلى أخى وجيليلة أن يبعدا به عن فناء

البيت ففعلا ، ففتحت الباب وأعزاني حل الحبال فجئت بسكين وتقطعها ،
وأطلقت سراح أخى وقد ظل يحفظ لى هذا الجميل طول عمره .

وهنا ينبغي أن أذكر أنى عدت إلى الخادم فلسست له المفتاح فى جيبه
وهو لا يدرك ولا يزال هذا الخادم حيا ولا يزال يتعجب لأخى كيف
وسعه أن يقطع الحبال الغليظة التى كان موثقا بها ، وأن يفتح الباب
ويخرج ، وكلما ذكر هذه الحادثة ، هز رأسه وقال : الله يرحمه !
لقد كان عفريتاً ، .

وكان هذا أول مر حرصت فى طفولتى على كتمانته .

قلت لنفسى بعد أن كتبت الفصول السابقة ، وسردت فيها بعض ما أذكر من عهد الطفولة ، واسمع يا هذا ، لقد رأيت أباك يضرب أنحاك ، ويلهب له جلده بالخيزرانة الطويلة ، ولم يضربك — كما كان يضربه لأنك كنت أصغر من أن تحتل ذلك ، أو لأنك كنت أشبه بالقطة الأليفة أو كلب البيت الذى يتبل منه أصحابه العبث ولا يرضون عنه أه يسرون به إلا إذا لعب وتشيطن وأظهر لهم نشاطه وذكاءه ، أو لعل اتقاءه أن يضربك ويشويك بالعصا ، راجع إلى أن أمك حية ترزق ، وفى البيت معك وأن أم أخيك لحقت بمن غبر فلك دونه من يحامى عنك وأخولا كان قد بلغ مبلغ الرجال فكان أبوكما لا يسهه الا أن تثقل عليه الشعور الخفى بأن هذا الشاب يزحزحه شيئاً فشيئاً عن مكانه : وينزله يوماً بعد يوم عن سلطانه ، وأنه هو الذى سيحل محله عاجلاً أو آجلاً ، كما حل هو محل أبيه — أى جدنا — وإن كان على قيد الحياة ، وعسى أن تكون بواحد الضرب لا هذا ولا ذاك بل تصادم الشعورين ، شعور الابن بأنه هو الشاب ، وأن أباه قد شيخ ، كائنة ما كانت سنة فى الحقيقة وشعور الأب بأن ابنه هو ابنه فهو طبل بالغاً ما بلغ طوله وعرضه ، أو لا أدرى ما العلة والباعث الصحيح ، وأنه ليخطرلى مائة تعليل وتعليل ولا أرى واحداً منها وحده يقتضى .

وخطرلى وأنا أحدث نفسى بهذا أن هذا التفاوت بين الأب والابن من المصائب . فنحن الآباء ، قد كبرنا فى نظر الأبناء ، ولا يمكن أن

يعد الابن أباه إلا شيخاً هرماً ، تقضى شبابه من زمان طويل ، ولا يمكن أن عليه وتعزى هو منه ، فلا يجوز له ما يجوز للشاب ويعقل منه ، ولا يليق به إلا حال الشيوخ القانين ولو كانت الحقيقة أنه ما أنفك قويا كفثا للحياة .

وذكرت - وأنا أدير هذا المعنى فى نفسى - أنى لم أسمع ولم أرقط : فى طفولتى ، شيئاً - كلمة أو إيماءة أو نظرة - تشى بالحب بين أمى وأبى . وكان يخيل لى أن العلاقة بينهما قوامها الاحترام المتبادل أكثر مما كان قوامها الحب . وهذا خطأ . ولكنه هو الذى كان يبدو لى فى تلك السن الغضة . ولقد مات أبى وأنا صغير وخلف لى أمى فحزنت عليه اثنتين وثلاثين سنة ، لم تخلع منها السراد يوماً واحداً ، وقد يكون هذا من الإكبار لا الحب ، ومن أجل ما طابت به نفسا فى حياته ، ولكنى أظنهما كانا متحابين أيضاً فقد كنت أسألهما فتبتسم وتطرق استحياء ويضطرم وجهها حتى فى كهولتها الذاوية ، وألح عليها بالسؤال فتهرنى ، وترجرنى عما تظنه عبثاً منى ، وكنت أغالطها أحياناً وأفاجئها بالسؤال على هذا النحو « ماذا كنت تحبين فى هذا الرجل المزواج المتعب الذى جعل حياتك معه جحياً فائراً بالنيرة » فكانت تؤخذ على غرة وتقول ، قبل أن تفكر : « إنك لاتساوى الظفر الذى كان المقص يطيره من أصبعه » وتراى ابتسم فتدرك أنها اعترفت فتغضب أو تتكلف الغضب ، وأحياناً تطردنى من مجلسها ، وهى تجاهد أن تعبس ويأبى وجهها إلا أن يضحك وتقول لى « قم . طيب قم . كفى قلة حياء . » فأنهض طائعا وأميل على رأسها فأقبله فترضى عنى وتدعو لى فأقول لها ويدع على الباب .

« اسمعى . لم أعرف أبى كما ينبغى أن أعرفه ، فقد مات قبل أن أكبر ، ولكن القليل الذى عرفته مضافاً إلى الكثير الذى سمعته منك ، يقنعنى بأنه هو » لم يكن يساوى الظفر الذى يطيره المقص من أصبعك وعزيز على

أن أقول هذا عن أبى ؛ فقد كان على العموم رجلاً فاضلاً ذا كرامة ، وإذا كنت أبخسه حته فذاك لأنك عندى بمنزلة لاتدانيها منزلة ، أنت خير الناس وسيدة الدنيا ؛ وكل من عداك هباء . وأسمعى أيضاً . أنا أحاول أن أحيا حياة فاضلة لأنك معى فى الدنيا . مجرد شعورى بوجودك يرفع نفسى ، ويعصبنى من كثير ، وما هممت بشيء إلا رأيتنى أسأل نفسى - هل ترضى عنه أى لو علمت أو لا ترضى - فأقدم أو أحجم تبعاً لجواب السؤال . ولو خلت منك دنياى لما بقى شيء يصلنى عن الشر والرديلة ، ولست أطيق البعد عنك لحظة ولكنى مقتنع أنه لو كان أبى حياً لما أمكن أن أحتمله ، ولا اطففت ان أعيش معه تحت سقف واحد ، ولعل ذاك لأنك - وأنت سيدنى - تدعينى أشعر أنى أنا السيد ولكنى أظن السبب أنى أحبك وأجلك ، وأنى مدين لك بكل ما جعلنى كما أنا ، أطال الله عمرك .

ولكنه سبحانه ، لم يشأ أن يفعل .

كلا ، لم يكن للحب ذكر ، فى بيتنا ونحن أطفال . ولكنه كان معى هذا موجوداً ، بين أبوى على الأرجح - وان كنت أنا لا أرى دلائله ومظهره ، وبين جدى وجدتى على التحقيق . وكان جدى قد قارب المائة ، وجدتى قد ناهزت السبعين ، ولكنهما كانا كاطلين ولم يكن أحلى من تناجى هذين القديمين اللذين ردهما الهرم إلى مثل حل الطنولة وسداجتها وطينتها ، وكانا لا يعبان شيئاً بوجودى ، وهما كما يقول الشريف الرضى :

تساقينا التذكر فاثنتينا كأن قد تساقينا الطلاء

وكان الذى يتناجيان به سهل الفهم فقد كان قصصاً وحكايات قديمة ، مما وقع لها وجرباه ، ولكن الحنو ، وعدوبة الصوت ، والنوبان ، وحلاوة اللمعة فى العين التى انطقاً نورها أو كاد ، واضطراب الشفتين إذ يقول الشيخ برقة : « هل تذكرين يا حاجة .. » فتهز رأسها المصبوغ بالحناء

ويفتقر ثغرها الأذرى يومض السرور في عينها ويشرق به وجهها الأحمر -
فقد كانت بيضاء حلوة - وتقول « ايه » ممطوطة طويلة ، ولكنها « آية »
الرضى والحمد لله والاعتباط بحال الذكرى . لا الأسف والأسى ، فقد
كان حب هذين المهتمين من الدنيا ، لهما معافيا ، وأن غرفه واحدة
تجمعها ، وأن لما بنين وحندة ، كلهم أحياء وبخير والله المنة ، وكنت
أرى منها ذلك فأدرك أنها مسروران وإن كنت لا أدرك كنة السرور ،
وأحس بفرحة غريبة بهذين الوجهين اللذين غضنهما السن وحضرت فيهما
أخاديد عميقة ، فأرتدى على جردنى وأطوقها وأقبلها ، فتضنى وهى تقول
ضاحكة : « إوع تفعضنى يا ولد » ثم تهوى على رأسى أو خدى بفمها
الفارغ وتقبلنى فيكون لقبها صوت كقولك « مق »

وأنا الآن رجل ، ولى زوجة وبنون ، لا بنات ، فقد أبت مشيئة الله
أن يكون لى بنات على ابترى لهن ، وأنا ابن هذا الزمن ، لا ذاك الذى
عاش فيه أبى وجدى من قبله ومع ذلك أرانى أستحى أن أقول لزوجتى
أنى أحبا ، وأشعر أنه لا يلبق بى أن أقول ذلك ، ولى كل هؤلاء البنين ،
وأحس أن زمن الكلام فى ذلك قد فات وهو لم يفت فى الحقيقة ، لكننا
جربنا وعانينا وفكرنا ، فعرفنا - عرفنا ماذا يحق للمرأة أن ينتظر ،
سحره ، وزالت فنته ، وفقد الحب تلك القدرة على خداع النفس
ومغالطتها وإيهامها .

وباربعما قلت لنفسى ، حين أخلوبها وتتدفق خواطرى فى هذا الهجرى :
« لماذا أنجبل ان اقول لزوجتى انى احبا ، امام هؤلاء الأبناء . . »
واقول فى جواب السؤال ان هؤلاء الأبناء يروننا كبارا ، ولا يتوقعون
منا ما هو متوقع من الشبان ، ولعلهم يظنون بنا اننا كنا فى صدر حياتنا
كل شيء إلا شبابا ، ويهيجنى ذلك ويثير نفسى فأقول ساخطاً معانداً :
« ولكنى لا انوى ان اجعل حياتى وفق ما يظنون ، قاتلى الله ان فعلت ،

وأدخل على زوجتي ويكون معها هؤلاء البنون وغيرهم من الضيفان - من الأهل أو الغرباء - فأتعمد أن أثني بالحديث إلى ذكر الحب ، وأهم بأن أجرى مع العناد ، فأحس كبح الحجل ، فأضطرب وأخرج من المأزق بمزحه ، فيظن السامعون أنني أهزل ، وتعرف هي أنني أجد .

فلا فرق بيني وبين أبي ، وأن كان بين زميننا كل فرق وما زلنا ، تحس اللجام على أشداقنا ، والأعنة الخفية التي تصدنا وتاوى رؤوسنا ، وتوجهنا وجهة غير التي تدفعنا إليها طباعنا وغرائزنا وبعد عشر سنين من الزواج والألفة والحال الوثيق بحر وجه الزوجة إذا همست في أذنها بكلمة حب أو لفظ يثنى به وإن كان لا يصارح وما أعرفني استطعت قط أن أقول لواحدة أنني أحبها بالغ ما بلغ جنوني بها ، فإذا شق على الكبح ونازعني نفسي أن أقول ، قلت ولكن مازحاً ، أو متظاهراً بالمزاح مصنعاً له لأشككها ، ولأنني استحي أن أنطق باللفظ ، أو على الأصح لأنني أشعر أنني إذا قلت الكلمة فقد صرت عبداً - أعني عبداً للمرأة لا للكلمة - وأنها حقيقة إذ أن تتخذ مني حصاناً تركضه بين بين العور ، وأنا لا أطيق أن أحس بقيد ما ، ولو كان من حرير ، وما أحسست قط بقيد إلا نفرت وشردت وتمردت : وأنا في كل يوم أقيد نفسي وألزمها أشياء شتى ، ولا أزال قابضاً على اللجام أشده وأصرفه إلى هنا وهناك ، ولكن هذا لا يتسنى إلا إذا كان زملتي في يدي ، والأمر كله إلى إرادتي ، فإذا شعرت أن بدأ أخرى تريد أن تقبض على الزمام طار عقلي ، وفقدت اتزاناً وركبت رأسي ، وأكون واثقاً أن هذا خطأ ، وأنه عناد صبياني ، وأني لو وكلت إلى نفسي ورأيت لما فعلت إلا ما يبراد مني أن أفعل ولكن طبعي تغلبني فأشقى ، بين دعوة العقل العاجز ودعوة الطبع الجامح .

والناس لا يضربون بنهم في هذه الأيام كما كان أبي يضرب أخى . وهم في هذا على حق ، فإن الضرب ليس تأديباً وإنما هو ترفية عن الوالد ،

ووسيلة لراحته من ثقل الشعور الذى يجيش بصدوره ، فهو شىء ينفع الأب ولا ينفع الابن .

ودأب الناس فى زماننا أن يترفقوا بالأبناء ويحنبوهم التتغيص ، وهذا جميل ولكنى أحس أنهم يبالغون فى الرفق ويسرفون فى اللين ، ويجعلون حياة الطفل أرغد مما ينبغى وأخلوا من المشاكل والعقد ، ومن كل ما يستدعى لإجهاد الفكر أو ما يستثير الشعور ويوقظ النفس ، فليتهم يضربون أحياناً - يرفق أيضاً - ولا بأس من أن يخرجوهم إلى العناد ويدفعوهم إلى التمرد ، ليعرفوهم بأنفسهم ويكتشفوا لهم عن بعض خفاياها .

جرت هذا بيالى وأنا أكلم شاباً فى الثانية والعشرين من عمره ، ولم أكن أعرف ماذا تعلم أو يتعلم وكان كلامنا فى شىء من الهندسة فوافقنى على رأى كان يعرف كما تينت فيما بعد أنه خطأ محض فقد كان طالباً فى مدرسة الهندسة وكان فنه ما خضنا فيه ، ومع ذلك لم يخالفنى ، ولم يصحح لى غلطى فلماذا كان هذا لا يضرب حتى يلحقه جالده ويتسلخ ليتعلم احترام النفس وليفهم أن المخالفة ليست عيباً وأنها ليست من سوء الأدب بل من الواجب مادام يعتقد أنه على حق - فمن غيره الجدير بالضرب . . وكيف تكافح هذه النعومة وذاك التطرى لتجعل من ابنك رجلاً يعرف قدر نفسه ويكرم عقله . . أما أنا فسيلى كسيل أبى ، ولست أستعين « بالزباليين » ولا أنا أقسو قسوته ، ولكنى لا أحجم عن قرص آذانهم ولكمهم إذا رأيتهم يجنبون أو يكذبون أو يبيكون الغير « ما يبكى الرجل » وقد جاعنى واحد منهم وقال أن تلميذاً معه فى المدرسة ضربه ، فسألته عنه أهو أكبر منه . . وهل هو أضعف من أن يضربه كما ضربه . : فكانت نعم هى جواب السؤالين ، فتناولت أذنه الصغيرة وقرصتها قرصاً وجيماً وقلت له « ألم يكن فى

الشارع حجر تتناوله وتقلعه به فتفتح له قرنه . . قال « بلى » قلت « لماذا
تجئنى باكياً وفى وسعك أن تنصف نفسك منه » . وأنذرتة أنى لا محالة
قاتله إذا تكرر منه ذاك ، ولم يكن القتل ما أعنى ، وإنما عتيت الضرب
الأيف ، وقد فهم عنى الطفل ، وأثبت لرفاقه أنه كفء لهم ، فأكفوا عنه
وهابوه ، وقد احتجت بذلك أن أجهل جرأته غير راجعة إلى مجرد
الخوف منى .

أظن أن هذا خير وأهدى من هذه التربية الطرية التى تفضى
إلى التخث .

حليمة وعم محمد

كان خادمتنا رجلاً يدعى « عم محمد » لا يعرف أحد من أين جاء - حتى ولا هو يعرف ، وقد سألته من أى بلاد الدنيا هو ، فشوّر يديه وهز رأسه ولم يجب ، ولعله نسى ، فقد علت سنه جداً ، والأرجح أنه جاء إلينا وهو صبي لا يفقه ، فقد كان لكل أسرة خادمها الذى نشأ وترعرع ، وشاب أيضاً ، فى ظلها ، ولم يكن أحد ينضو عنه ثوب هذه العمومة إلا ثلاثة - جدى وأبى ، من الرجال ، وجدتى من النساء أما سائر أهل البيت فكان اسمه عندهم « عم محمد » وكان هذا بعض ما يكرم به الناس خدمهم فى ذلك الزمان .

ولا أذكر كيف كان وجهه فى حدثى ، فإن مسافة الزمن بعيدة ، ولكنى أنظر إليه الآن - فإنه لا يزال حياً يرزق - وأرى كيف كان يمشى معتدلاً القامة كالسيف يأبى أن يتخذ الترام أو غيره أو يقطع المسافات بين أرجاء القاهرة إلا على رجله ، وكيف أنه لا يمرض ولا يرقد ولا يشكو شيئاً حتى فى هذه الشيخوخة العالية وكيف أنه لا يزال يشرب « البوظة » التى أعرفه - مذ عرفته - كلفاً بها لا ينصرف عنها أو يتوب ولو قطعوا رأسه وأوصاله فيخيل إلى أنه كان دائماً هكذا - بشاريه الخفيفين ، وأسنانه القوية التى لم تسقط ولم تتزعزع منها واحدة . ووجهه المغضن الحافل بالأخاديد والحفر ، وحنائيه الأصفر الباهت الذى يحرص مع ذلك على صقله فيمسحه

بطرف المعطف العتيق الذى خلعتة عليه منذ خمسة عشر عاما ، ويأبى مع ذلك أن يبلى أو يتمزق .

وكان عمله مقصوراً على ساحة البيت وما فيها من غرف أو « مناظر — كما كانت تسمى — وعلى قضاء الحاجات من السوق ، ولا يجوز له أن يصعد إلى حيث السيداب فإن لمن خادمتهن التى لا ينبغي لها تجاوز السلم إلى ساحة البيت وكانت حليلة هذه فتاة سمراء واسعة العينين مقوسة الحاجبين ، طويلة الأهداب وممشوقة رشيقة ، وكانت هى التى تنزل إلى عم محمد إذا احتاج البيت إلى شىء فتقف على آخر درجات السلم وتنقر على الباب فيجئ إليها ، فحدث ما كان لابد أن يحدث — أحبا وأحبته .

وأقبل عم محمد يوماً على جدى ، وهو جالس على كرميه فى الدهليز وفى يده نبوته وشفته تتحركان بالتلاوة ، ووقف إلى جانبه يفرك كفيه ويتحين من الشيخ التفاته إليه ، فلما فعل ، مال عليه وأسر إليه أنه يطلب يد « حليلة » فهش له الشيخ لأن الزواج نصف الدين . ووعده أن يخاطب أبى فى الأمر وأن يحمله على الموافقة .

وقد كان — تزوجا ، وصارت حليلة ، تنتقل فى الليل إلى غرفة « عم محمد » فى البدروم كما يسمى فى مصر ، أو السرداب كما يسمى فى العراق .

وقد جهزوها له بسرير وخزانة وصندوق أحمر ، وحصيرة ملونه وبساط قديم مما كان فى البيت ، وكانت حليلة هذه قوية جليلة لا تفر ولا تن ، فكانت تعمل طول النهار وشطراً من الليل ، فى البيت — تكنس وتمسح وتغسل . وتنفض وتشيل وتخط ، وترتب ، وتغزل وتعجن وتخبز وتساعد فى المطبخ ، وتطلع تنزل ، حتى إذا جاء وقت النوم انحدرت

إلى « عم محمد » وبقيت معه إلى الفجر ، فتنهض لتوضي الشيخ وتعد له
« الشبوك » والقهوة . .

! وحملت حليلة ، فعظمت بطنها ، فأرلدوا أن يترفقوا بها ، وأن
يعقوها من عملها الشاق حتى تضع حملها ، ولكنها أبت وظلت تروح وتجي
وتشيل وتحط وتقوم وتقع ، وهي سرورة وزاد وجهها إشراقاً ولعت
عينها بنور البشر والجلد .

وكان جدى يصعد بعد الغروب بقليل . أما أبي فكان يترك المكتب
ليصعد أو يخرج ، بعد صلاة العشاء ، وينصرف الكاتب ، ويوصد
الباب ، ويصفق عم محمد فطفل عليه حليلة من إحدى النوافذ — فما بقي
من هذا بأس بعد انصراف الرجال — فيسألها « عاوزين حاجة . . »
فتفسر ثم تخبره ، ويطمئن فيخرج متسللاً ويغيب ساعتين أو ثلاثاً ثم يعود
وهو يتطرح من السكر ، وكان لا يشرب إلا البوظة وكان جدى ينهأ ويعظه ،
وأبي يضربه وهو لا ينتهي ولا يرعوى ، حتى يشأ من صلاحه فأهمل أمره
وتركاه للأيام ، فلم تزد إلا حباً « للبوظة » .

وقد سأله مرة « ألا يمكن أن يزهدك شيء في هذه البوظة . . »
فأجابني بسؤال « أهى حرام . . »

قلت « من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » .
فنظر إلى مستفسراً مستوضحاً فقلت أعني أنك أصبحت تفتنى . من
طول ما عاشرت أهل القلم . ولكن قل لي . إنك تشربها منذ نحو سبعين
سنة ، أفلم تسأمها . سبعون سنة طويلة . إن المرء خليق بعدها أن يمل
الحياة ، فكيف بالبوظة . .

فقال معترضاً « سبعين سنة إيه ياسيدى » .
قلت « معذرة . لندع السن . ولكن ألم تسأم » .

قال « لم يبق لي ما أتسلى به سواها . »

قلت « وحليمة »

قال « حليمة . الله يطيل عمرها ويخليها لأولادها ويبارك لها فيهم »

فأقصرت ، وبودى أن أسأله « ألا يزال يحبها » .

وكانت ليلة أحيائها « عم محمد » بالسهر في البوطة وهو آمن ، فقد كان جدى نائماً ، وأبى في بيت زوجته الأخرى ، فلما عاد وتطرح إلى غرفته ، ألتى حليمة راقدة ، ولكن عينيها مفتوحات ، وإلى جانبها شيء مغطى بملاءة ، فوقف عند السرير ، ونظر إليها مستغرباً ابتسامتها وكانت عادت أن تنهض له حين يدخل عليها لتكون في خدمته حتى ينام فلما طال تحديقها فيها ، تحت الملاءة ورفعت ماتحتها ، على كفها ليراه ، فأفاق وذهب عنه خمار السكر ، وهوى على ركبتيه ، وأسند جبينه إلى مرتبة السرير وراح يبكى - بكاء الفرح لا الحزن ، فوضعت حليمة طفلتها ، وجلست ، ومدت يدها إلى رأسه لترفعه وتمسح له دموعه فتناول كفها ولثم راحتها ، ونظر إليها وقال .

« لو كنت أعلم لما خرجت »

قالت « خروجه كان أحسن .. ماذا يصنع الرجل في هذه الحالة .. »

فسألها « كيف .. من كان معك .. »

قالت « لا أحد .. لم أخبر أحداً .. ما الداعي .. »

فدهش ولكنها ابتسمت ونهضت ، لتقوم بخدمته كعادتها ، وحاول هو أن يمنعها ، فسخرت منه ، وسخن له الطعام وقدمته إليه ليأكل ، وكان لا يأكل إلا قبل النوم مباشرة ، وبعد أن يرتوى من البوطة فعكف على

طعامه وهو يتعجب لحليمة وقوتها وجلدها ، حتى ليحيثها المخاض فتنشدد
وتحتمل آلامه في صمت ، وتضع وحدها وبلا معين ، وبعد ساعة أو ساعتين
ترجع كما كانت ، لا فاترة ولا متهاقنة ولا مسترخية وجلال مخاطره أن حليمة
آية من آيات الله . وأنه سعيد بأن تكون زوجته ، وحدثته نفسه : على
ماروى لى أن يجعل مظهر شكره لله وإقراره بنعمته عليه ، أن يكف عن
معاقره البوظه ، ولكنها كانت نجوى ليس إلا .

وقال لها وهو يمسح يديه في القوطه « يجب أن تستريحى غدا على الأقل،

فاستغربت هذا الاقتراح وقالت « استريح . أنت مجنون .. »

ولم تسترح حليمة ولا دقيقة واحدة ، فكانت ترضع طفلها وتركها
وتواصل عملها المتنوع .

ولا تزال حليمة إلى اليوم – وقد جاوزت الستين – أقوى وأقدر على
العمل من عشر فتيات فليس أعجب من « عم محمد » إلا امرأته التى لا تكل
ولا تفارقها ابتسامتها كأنها مرسومة – ابتسامة العطف والرضى والتسامح ،
وما أكثر ما افتقرت إلى عطفها . ورضاها وتسامحها . وكان حسي منها في
كل حال أن تنظر إلى بعينها النجلاوين ، وأن أرى ثغرها المفتر فتسكن
نفسى ويشيع في صدرى الاطمئنان ، ويعمر اليقين قلبى ، ولا يسغى إلا أن
أجيبها بابتسامة . فتهز رأسها على مهل وتربت لى على كفى وتمضى .

صدق عم محمد فإن حليمة آية

الحادثة الثالثة أن « جليله » بنت حليمة وعم محمد - أكلتها النار وأنا أنظر إليها مسحوراً . وبعد سنوات وسنوات طويلات المدد ، قرأت أن نبرون أضرم النار في رومية - عروس الدنيا يومئذ ووقف على تلها في حاشيته المستهرة ، وفي يده قيثارته يعزف عليها ، وعيناه على الضرم المتأجج والدخان المتكاثف ، فاستطعت أن أفهم ، ولم يعنى أن أدرك سحر النار وفتنة هولها ، وكان الذى تمثل لخاطري وأنا أقرأ ذلك .. لارومية وبناها العالية وقصورها الضخمة بل « جليله » وقد ضربت النار عليها سرادقاً .

ولم تطلق المسكينة إلا صيحة جزع واحدة ، ثم وقفت كالتمثال ، وذهبت النار تأكل ما عليها من خفيف الثياب وتحيل جسمها الأسمر الطرى جمرة مضطربة .

وكنت واقفاً على سلم البدروم - مسمراً هناك - وعينى عليها لا تتحول عنها ، وفي مسمعى من اللهب الخفاق الامعان مثل اللدمة والتلويح ، وفي أنفى رائحة اللحم المشوى وعلى وجهى صهد الحر .

وكان الوقت شتاء ، والبدروم يكون فى الصيف رطباً فكيف به فى زمهرير الشتاء . . وكانت جليله قد سبقت أمها إلى هذه الغرف التى تشبه القبور ، فشرعت تضرم الفحم - أو السن كما يسمى تراب الفحم - فى الموقد لتدفأ به ، ولم تكن عندها متفاخ تعجل به لإيقاد النار وكانت ترتعد وتنتفض من البرد ، وكان مصباح الغاز مضاء ، فتناولته وانحنى به على الموقد ورفعت غطاءه النحاسى الذى يتدلى منه الشريط فى الغاز ولم تر أن

تترع الزجاجة وتطفئ الشريط قبل أن تصب الغاز على الفحم ، فسال منه شئ على ثوبها وهي لا تدري ، أعادت الغطاء إلى مكانه من المصباح ، ووضعت إلى جانبها على الحصيرة وأشعلت عوداً وأدنته من البترول في الموقد فارتفع منه اللهب فجأة ، وكانت حانية عليه ، فردت وجهها بسرعة ، ونسيت أن تتناول المصباح وهي تنهض قائمة ، فانقلب المصباح واشتعل طرف الثوب الذي كان مسفساً بالبترول .

وليس هذا خيالاً أتخيله فقد رأيته كله بعيني ، وكنت قد غافلت أُمي وحليمة ، وانحدرت وراء جليمة ، وفي مأمولى أن أجالسها وألاعبها وأسامرها قليلاً ، فقد كنت مشوّفاً بها ، وكانت هي تأنس بي وتهش لي ، ولا تضن على بما تعلم - مما سددت أو رأت أو خطر لها . وكنت على عتبة الباب ، وكنت أُمم بأن أضع قدمي على درجة السلم نازلاً إليها ، فرأيتها تمشي إلى « الصفة » وتعود بالمصباح في يدها ، وألمحت أن أقف حيث كنت - على العتبة - فلم يفتني شئ من الفاجعة .

وألقيتها تهوى إلى الأرض ، والنار حولها ، فأفقت وأرتددت راجعاً إلى ساحة البيت : ورحت أصبح ، وأزعق وأدعو من يسمع أن يدرك : جليمة فإنها تحترق . وسرى الخبر سريان النار في الهشيم اليابس ، وكان أخي الأكبر في البيت ، فنزل مع النازلين ، ورأوا أن جليمة قد أكلتها النار ، فصار هم الجميع أن يطفئوا الحريق ، فقد امتد لسان النار إلى الحصير والسريـر وسائر مافي الغرفة .

وكنت بينهم ، أروح وأجىء إلى حيث أراهم يروحون ، ومن حيث يجيئون ، ولا أعلم شيئاً ، وكانوا مضطربين وكان لفظهم كثيراً وعالياً ، وكان النساء يبكين ويولولن وفي أيديهن الطشوط والأباريق ، وأخى يتناولها منهن مترعة ويصب على النار ، ولا يفتأ يسأل عن « محمد » - « ابن الكلب » أين غطس في هذه الليلة السوداء ، ويتوعده بعققة ، ويقول

ليته كان هو الذى احترق ، وبقيت جليلة ، فتقول حليلة - عفى الله عنها « آه والنبي » . وترسل الصوت مجلجلا فى سكون الليل بالنواح على بنتها ، ولا تكف عن ذلك ، وعلى الرغم من الحرقات التى تعانها لا تتوانى عن ملء العثوث وحملها إلى أخى .

ورآنى أخى كالكلب الذى لا يترك قومه ولا ينفك يجرى معهم ويطوف بهم ويدخل من بين سيقانهم ويربكههم وهو يريد أن يعرب بخفة حركته بينهم عن مشاركته لهم فيما هم فيه ، فزجرنى وطردنى وأمرنى أن أصعد .

ولكنى لم أطع - نعم تأيت عن البدروم ، ولكنى بقيت فى فناء البيت وكيف أصعد إلى فوق . وكل من فى البيت قد ترك هذا الفوق إلى تحت . . وكيف أكون وحدى فى مأمن من المخاوف التى كظوا لى رأسي بصورها فيما كانوا يقصون على كلما أرادوا تنويمى . . كأنما كان خير ماينم الطفل هو هذه المفزعات .

وجاء أبى : فقد دعى من البيت الصغير ورآنى فى الساحة وحدى ، فأقبل على يسألنى بصوته الهادى المتزن النبرات « أنت هنا » فبكيت . . كأنما فتح لى هذا السؤال منفساً فتفجر ما كان محتبساً فربت على كتفى ، ومضى عنى إلى البدروم ، فألقى أهل البيت جميعاً جالسين على درجات السلم .

وكان لا بد أن تأتى الشرطة ، وأن يجرى التحقيق ، وكانت النار قد أطفئت ، فذهب بى أبى إلى المكتب ولحق أخى بنا ، بعد أن غير ثيابه وهناك قصصت عليهما ما رأيت ، وكان الشرطى أخوف مناخاف نحن الصغار ، بعد العفارىت والأمساخ ، وغير هذه ، وتلك من المرعبات . وكان الذى نعرفه هو أن العسكر عدو للدود لخلق الله ، وأنه مجعول للقبض عليهم والنزج بهم فى المحابس ، وأن « الكركون » - كما كنا نسمى مركز الشرطة - ليس

أكثر ولا أقل من سجن فطيع ، وأن العاقل من يتقي أن يمر من أمامه ،
فشرع أبي يذهب عنى الروع ويطمئني ، ويروضني على السكون إلى لقاء
هؤلاء الشرطة وغيرهم ، ويفهمني أنه ليس على أكثر من أن أرى لهم
ما رأيت ، ويؤكد لي أنني سأكون موضع عطفهم ، وأنني سألقى منهم كل
خير ، وأنه لن يصيبني منهم سوء ، فنسيت وذهلت عن النار التي اشتوت
بها جليلة ، وعن فجيعتي فيها ، ولم أعد أفكر إلا في هؤلاء الشرطة المخوفين
الذين سأقف أمامهم وأسأل وأجيب . .

مضت على هذه الحادثة أربعين عاما . ولكنني لأرى أثرها يمحى أو
يهت ، وليس أبغض إلى ولا أقدر على أفزاعي وأطارة عقلي من النار ،
ويمضي شتاء بعد شتاء ، وتحتاج إلى أضرام النار في الموقد للتدفئة فيسألني
أهل البيت فأصبح بهم « يا خبر أسود ! لا لا لا . . حاذروا » وترتفع
قبل عيني جليلة « في سراق من اللهب الخفاق .. »

ويلحون على ويقولون أن البرد قارس ، فأروح اتفلسف وأقول لهم أنهم
بله ، وأنهم يضعفون أجسامهم بتعويلهم في المقاومة على الثياب والنار ،
وأن قدرة أجسامهم على المقاومة تزيد إذا خففوا ولم يسرفوا في التوقي ، ولم
يجعلوا معولهم في التماس الدفء على شيء أجنبي منهم ، وأقول لهم أيضا
أنني أضعف منهم جميعاً ، وأنحف وأحوج إلى وسائل الوقاية ، ولكنني أحتمل
ما لا يحتملون . فلماذا . . لا سر هناك كل ما في الأمر أنني لا أكثر من
الثياب ، ولا أتخذ المعاطف إذا وسعني أن استغني عنها ، ولا أستعين بالنار .
وأذكر لهم أنني كنت في صدر أيامي ألف رأسى عند النوم في فوطة كبيرة
وألبس ثياباً من الصوف حتى في وقدة الصيف المحرقة ، فكنت لهذا طول
عمرى مزكوما ، وكان السعال لا يترك لي راحة في ليل أو نهار ، ثم ضاق
صدرى ، وحزنت على نفسي وقلت ، إذا كان هذا حالى في شبابي ، فإذا
عسى أن أكون في الكهولة والشيخوخة . . وكان هذا يسود الدنيا في عيني
ويغريني بالتشاؤم .

وكانت المرارة تقطر من قلبي على الورق، في شعري ونثري، ويشت
فتمردت وقلت أنه لن يصيبني شر مما أعان، فخففت، وصرت إذا نمت
أخلع ثيابي جميعاً ولا أبقى منها إلا الكفاية للستر. أي الجلالية ليس إلا،
وكان الأوان يسمح بذلك، فقد كان الوقت صيفاً، فلما جاءت مقدمة
الشتاء، وسعني أن استغني عن الملابس الثقيلة التي اعتدت أن أتخذها،
ودخلنا في الشتاء فلم أشعر بحاجة إلى المعطف، ولكن بقية من الحذر القديم
جعلتني أحرص على حملة، ولكن على ذراعي، عسى أن احتاج إليه
في الليل. وكنت إذا شعرت بهذه الحاجة، أطل أداغها وأقاومها، وأرجى
الالتجاء إلى المعطف والدخول فيه، وأقول لنفسى «نصف ساعة آخر.
لن يقتلني نصف ساعة من البرد»، ثم أرجى الأمر مرة أخرى وهكذا،
حتى أصبحت أحس أن المعطف حمل لا معنى له مادمت لألبسه، فصرت
أتركه في البيت، وأن لي الآن لمعطفًا، ولكنه قديم.. قديم حتى لقد نسيت
من طول عمره متى فصلته، وهو للزينة أكثر مما هو للمنفعة، بل ليس
حتى للزينة، فقد أكلت منه الفيران نحو شبر في شبر وخجلت أن أبعث به
إلى الرقاء، ولم أر أن أكلف نفسي ثمن معطف جديد لا ضرورة إليه
فتركته، وأمرى إلى الله، وأمره إلى الفيران.

أما الشرطة فقد زایلني الخوف الصبياني منهم. فما يسع من يشب عن
الطوق إلا أن يدرك أن الشرطة لا يملكون ضراً ولا نفعاً، وأن الأمر فيهم
إلى القانون وأنهم ليسوا أداة لإرهاب—أو لا ينبغي أن يكونوها—بل أداة
حماية للناس. ولكنني مع ذلك أكره أن أدخل مركزاً من مراكز البوليس
وانقر من الحاجة إليهم وأحب أن أستغني عن الالتجاء إليهم ولقد سرقت
خادمة كانت عندي أشياء—أو هذا هو المرجح والذي تشير إليه القرائن
جميعاً—فقلت غفر الله لها ولا أحوجنا إلى البوليس، وهنيتا لها ما أخذت
ولا عذبها الله به، (فما هي بعد كل ما يقال فيها إلا مسكينة،
وهل ينفعها ما حملت إلا قليلاً. وسينتهي بها الأمر إذا اعتادت ذلك،

إلى الشقاء المحقق . فهي أحق بالعطف . وأولى بالرحمة ولو أنها لم تهرب
بما حملت ، لحاولت أن أعالجها وأن أفىء بها إلى الخير ، ولكن الأمر
خرج من يدي بفرارها ، فאלله هو القادر على إنقاذها من ذلك المآل
الخفيف الذي أتوقعه لها .

ولى بين رجالى البوليس معارف وأخوان أحبهم وأكبرهم ، ولكنى
لا أحب أن أحتاج إليهم ، ولست أكره مجالسهم ، ولكنى أحس غضاظة
حين أكون مع واحد من رجال « السلطة » وأحب أن يكون غيى مثلى
- لاسلطان لهم على خلق الله . ولعل هذا بقية من أثر الذشاة الأولى
على أنى لست على يقين من هذا فقد تكون لهذا الشعور عال(أخرى خفية
راجعة إلى آرائى ومزاجى .

- ٧ -

لا أعرف ما سر حبي للحى فى وجوه الناس ، غيرى ، ولكنى أعرف
أتى مارأيت قط لحية طويلة تندى كالمخللة إلا نازعتنى نفسى أن أجعل لها من
أصابعى مشطا . وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبت بها ، فان الناس فى
زماننا يحلقونها أو يقصونها ، ولا يرسلونها ، اكتفاء بالمظهر واستملاء به عن
الحقيقة الخشنة أو الشائكة ولن تجد أحداً فى هذا الزمن يغضب إذا أخفى
الحلاق له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منقوشة
ذهب بها إلى برلين لبشرك فى تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك .
وقد احتفظ بحبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفتك البلاشفة
وأخطر الفوضويين . قالوا . فذهب به صديق له إلى دكان حلاق . وذهب
صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يقرع من هذا الأمر ، فما راعه إلا صباح
وزعيق لا يكونان فى برلين إلا من مثل الشيخ ، فارتد إلى الدكان فألقى
الشيخ واقفاً وسط الدكان والنوطة على صدره وهو يرسل الصوت مجلجلا
بالعربية الفصحى ، والحلاق مبهور فسأله صاحبه عن الخبر فقال « خير .
أنظر .. » وأشار إلى خده الأيمن فنظر صاحبه فإذا الغابة الكثيفة اللقاء قد
ذهبت بقدرة قادر ، ولم يبق إلا وشم ، على حين بقيت الغابة على خده
الأيسر هائجة كما كانت ، فلم يسعه إلا أن نضحك ، ثم عاجله حتى رده
إلى الهدوء والسكينة وسأله (ماذا قلت للحلاق ..)

قال الشيخ . (أنه رطن لى ولكنى فهمت أنه يسألنى ماذا أبغى ، ولم أدر
كيف أجيبه فأومأت إلى لحيتى وأشرت بيدي أن سوها — هه — أى بعض
الشيء قليلا جداً ، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها) .

وسأل الخلاق كيف حدث هذا الغلط فقال أنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته ويقصه منها فأشار الشيخ إليها وقال (هاف) أي النصف فهو لم يجز عليها ولم يجاوزها ما طلب .

كلا : لا يغضب أحد في هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ ، إذا ما جار المقص على لحيته ، فيندر أن أنعم بمنظر لحية حقيقية ، أو تتاح لي فرصة للعبث بها وتمشيطها ، على أنه لا أسف ، فقد فزت من ذلك في حلقاتي بأكثر من نصيبي العادل ، وكان حسبي لحية جدي . أفنل شعراتها أو أثنها . وأدسها في أذنه فينتفض ويصيح بي ويتردني فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك فلما مات جدي شعرت بأن خسارتي جسيمة ، وأني فقدت مالا أرى عنه عوضا ، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان ، فقد جاء أخو جدي ليترينا ، فأسكناه وكنت أنا أشدهم إلحاحا عليه وتعلقا به ، وكان قديراً فلاحيته تبد أطول مما هي في الحقيقة فتسللت بها أسابيع حتى كان يوم وكنا جلوساً على وسائد وحشايا مبعثرة على البساط وكان هو مطرقاً والسبحة في يديه ! وإذا به ينتفض قائماً ويعلن إلينا عزمه على السفر . فاستغربنا وسألته جدي :

« ماهذه المفاجأة ؟ »

فقال « الحقيقة يا حاجة أني سمعت صوتا كصوت أبي يدعوني »

فزاد تعجبنا وقال أني « أبوك يا خال .. أبوك يدعوك .. كيف تقول .. أين أنت من أهلك وبينكما ركوب خمس ساعات في القطار ..

فقال « نعم يدعوني . لقد سمعت صوته واضحاً جلياً ينادي : يا عمر ولا بد لي من السفر فما أشك في أن به حاجة إلى .. »

وأصبر على السفر ، وأبى أن يبقى ، فامتنودعناه الله وأرسلنا معه « عم

محمدؑ بالحقيبة إلى المحطة وفي مساء اليوم التالي جاءتنا منه برقية ينعى إلينا فيها أباه أى جد أبى .

ومن تمام القصة أقول أنهم تحدثوا فيما بعد بأن هذا الجد كان راقداً ثم اعتدل فجأة وأطلقها صيحة قوية « يا عمر » ولم يزد .

وكان هذا الجد معلوداً من القوم الصالحين ، وكان يلبس عمامة— كما لا أحتاج أن أقول ، فان الصالحين لا يكونون على ما يظهر ، إلا من أصحاب العمام ولكن لفتها كانت خضراء ، لأنه شريف من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكان السيد محمد هذا قويا ، وقد احتفظ بقوته حتى في شيخوخته العالية ، فقد جاوز التسعين أو قارب المائة . ولم يركب في حياته قطاراً ولا تراماً ولا مركبة . وكان إذا زارنا في القاهرة يحج على قدميه ، وعلى كتفه الخرج الذى فى شق منه ثيابه ، وفى الشق الثانى هدية من التمر أو الجبن « الحلوم » أو غير هذا وذلك مما يرى أن يهديه إلينا . وكان أبى قد رزق قبلى بولدين . ماتا . فلما جئت أنا إلى الدنيا ، خاف أبواى أن أموت أيضاً . وصارا يجزعان كلما أصابنى برد أو غيره . وأنى لما أن يعلما الغيب وأن يعرفا أنى ممن قيل فيهم أن « عسر الشقى بقى » واتفق أن جاء هذا الجد للمبروك فاستكتبوه لى حجاً ، فخطط شيئاً فى ورقة ، أو كتب آيات من الكرىم : لا أدرى وطواها وأمر بها أن تغلف ونهى عن فتحها . وقال علقوها له جنبه : فغلفوها فى قماش للتنجيد . أى لكسوة المراتب وبعثوا بها إلى حذاء : ولم يكن حذاء فى الحقيقة : وإنما كان رجلاً يصنع المراكيب فجلد الحجاب ، وجعل له عينين للحيط : وعلقوه لى فصار كالحجر فيما أحس حين أرقد على جنبى :

ولم يفارقنى هذا الحجاب إلا بعد أن انتقلت جدتى إلى رحمة الله :

حتى بعد أن كبرت ودخلت في مداخل الرجال وتزوجت ، كانت تصر على لبسه . وكنت أغافلها وأخلعه وأدسه تحت الوسادة . فاذا عرفت ذلك نظرت إلى نظرة أسف وعتاب وإشفاق . وكان لبس الحجاب يثقل على نفسي وكنت أنقر من ذلك نفوراً شديداً . ولكني كنت أقول لنفسي أن جدتي كبيرة السن وأنها فجعت في ابنها وأنها تجزع كلما خطر لها أنها قد تنفج في حفيدها الذي تنعزى به . فماذا على لو أرضيتها وسررتها وتركها تقضى ما بقي من عمرها في راحة واطمئنان . ثم أتى ما أحببت أحداً قط مقدار حبي لها ولأمي فكنت أشعر أن قلبي تعصره يد قوية غليظة حين أرى على وجهها آيات الفزع . ومن أجل هذا استخرت الله وتوكلت عليه وتركها تفرح وتطمئن بالحجبات على جنبي . وكانت إذا رأني مقبلاً عليها لتحيتها كالعادة تبسم لي بقمها الأدرد ، وتمد يدها إلى جنبي لتتحسسه ، فأضحك وأقول « لا تخافي » أنه مازال في مكانه . وما أبقيه إلا لأنه يسرني أن أراك راضية قريرة العين « فتمسح لي رأسي وتدعو لي بخير .

فلما ماتت ، تركت الحجاب . وكانت أمي تقوم في أول الأمر مقامها في اللاحاح على أن أحفظ به فقلت لها يوماً « يا ستي . أنك عاقلة ، فينبى لي لماذا ينبى أن ألبس هذا الحجاب » .

قالت : « أنه بركة من جدك » .

قلت : « صدقنا وآمنا . وأنعم بجدى وأعظم ببركته . ولكن ماجدوى أن أضع حجراً . »

فأطرقت فقلت : « أنا أعلم أنك تحجلين أن تقولى أنه يقينى السوء ويحمينى من الموت لأنك أعقل وأذكى من ذلك . أليس الرب واحد والعمر واحد . أليس ما قدر يكون » .

قالت : « آمنت بالله »

قلت : « كنت أعلم أنك ستوافقين على اطراح هذا الحجاب . ولكنى أحب أن احتفظ به للذكرى فاحفظيه لى عندك » .

فأخذته ، وبقي عندها مصوناً حتى ماتت فقيل لى أنهم وجدوا حجاباً بين أشياءها . وسألونى ماذا يصنعون به .. فأوصيت به أن يحفظوه فانه أثر له تاريخه الطويل وصلته الوثيقة بأقوى العواطف الإنسانية ففعلوا ، ولكنى لم أطلب أن أراه ، والحق أقول أنى لم أقو على النظر اليه يومئذ ، فقد كان موت هذه الأم الصالحة أوجع ما أصابنى فى حياتى وأعمقه أثراً فى نفسى ، ولقد أبيت إلا البقاء فى البيت الذى وافاها الأجل فيه ، لأن كل ما فيه يذكرنى بها ولكنى كدت أجن ، فقد كنت أتشدد وأظهر الجلد ، ولكنى كنت أراها فى كل مكان ، وأبصرها تروح وتجيء وأسمع صوتها ، فكأنها لم تمت وأن كان غيرى لا يعرف ذلك ولا يفطن اليه ، وتلفت اعصابى فكانت هذه الخيالات تسرنى احياناً ، وحياناً أخرى تفزعنى فاضطرب وارتعد ، وثقلت على وطأة الهواجس والوسوس وطال الأمر فلم أر علاجاً أحسم به هذا البلاء الا أن أفارق البيت ، وأنأى بنفعى عن مواطن الذكرى ومثارها على قدر الامكان ، وأقول على الامكان لأن المرء يستطيع أن يهرب من بيت أو بلد ولكن أنى له يهرب من نفسه .

بعد وفاة جدى أدخلنى أبى المدرسة القريبة — لقرىها من حيننا ، وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التى يجرى فيها الترام « الجديد » والتعرض لأخطاره ، فقد كانت ضحاياه كثيرة فى تلك الأيام .

وكانت للمدرسة بوابتان — واحدة على شارع القرية — أى صانعى الخيام . وكانت رحيبة ولكنها عتيقة جداً . وقد بقيت بها أربع سنوات : ولا أذكر أن أحداً خطر له أن يجعل لأبواب الحجرات فيها مشابك ، فكان المعلم إذا أراد أن يترك الباب مفتوحاً ، يجرى بحجر يسند به الباب . ولكن كان للحجر منافع أخرى لبعض المعلمين وأخص بالذكر منهم شيخاً أعور كان يعلمنا « الخط » فإذا أساء أحدنا الكتابة أو تشاغل عنها بالكلام أو ضحك أو لعب ، أو فعل غير ذلك مما يفعل الصبيان ، ناداه الشيخ ودق له أصابعه بهذا الحجر .

ويكفى للتعريف بالمدرسة أن أقول أن ناظرها كان « وقتاً » عليها وكان الكبار منا يروون عنه أنه كان يقول عن نفسه أنه « جاهل جاهل » ، لكن أدارجى — أى أداري . وأنصفه فأقول أنه كان وجلاً طيباً ، وأنه لم يسن قط إلى معلم أو تلميذ أو فراش — أى خادم — وقد أنعم عليه فى السنة التى دخلت فيها مدرسته ، برتبة بك من الدرجة الثالثة وهى لا تخول لصاحبها لقب إلبك ولكنه فرح بها وانتحل اللقب وصار يغضب إذا لم يطلقه عليه مخاطبه : وقد جمعونا يومئذ صفوفاً فى ساحة المدرسة ، وأبلغونا خبر الأنعام على « سعادة البك » وهتفوا فهتفنا وراءهم

« أفندي مزشوك يشا » وهى عبارة تركية معناها الحرفى « يعيش أفندينا كثيراً أو طويلاً » .

وكان الناظر جارنا فهو يعرف أبى ، ولهذا كان يسمينى « ابن عبدالقادر » ولكنه كان أحنناً فكان ينطق الباء ميماً فيما يخيل إلينا . وكنت على صغرى قد فطنت إلى مواطن الضعف فى نفسه .

وأدركت أن « سعادة البك » مفتاح كل باب مغلق ، فلا يكاد يسعنى أقول له « ياسعادة البك » حتى يهش لى ويهز لى رأسه راضياً ويعفو عن ذنبى أو يجيبنى إلى ما أطلب . وكنت دقيق الجسم صغيرة جداً — وما زلت كذلك إلى اليوم — ولكنى كنت حركة دائمة فكنت لهذا لا أطيق الجلوس ساعة كاملة على تلك المقاعد الخشبية الناشفة . وكان قلقى واضطرابى يثقلان على المملين فيضربوننى أو يشكوننى إلى الناظر فتعجبنى « سعادة البك » من العقاب .

وكان معلمنا فى السنة الأولى شيخاً قصيراً عظيم الوجه مغضنه جاحظ العينين واسعهما — وكان وجهه الضخم فيما يملو لى — فى حجم صدره : وكان يعلمنا القراءة والكتابة والخط والحساب ويحفظنا القرآن . وكانت لنا ألواح من الخشب نكتب عليها الآيات الكريمة بالخبر ، ثم نعود بعد حفظها فنحورها بالأسفنجة ونكتب غيرها . وهكذا . فجمع الشيخ منا ملايم اشترى بها « ماجورا » أخضرا كان يملؤه ماء لنغمس فيه الأسفنج ونمسح الألواح . وكانت أدراجنا دكة كبيرة تسع ستة من الصبيان تتصل بها أدراج معلوم . وكانت قديمة مفككة وقوائمها متخاذلة ولم يكن من النادر أن تقع بنا فتتصايح ونضوضىء ، فيخف إلينا الشيخ ويرى أن الدكة قد تفككت فيخرج ثم يعود بالمسامير يدقها فيثبت القوائم والأرجل فى مكانها من مقعد الدكة أو لوحها :

وكانت حجرتنا هذه تطل على حجرة المعلمين وكان كبيراً ما يتفق أن يكون الشيخ قد خرج من بيته على ريق النفس فينادى الفراش ويناوله قرشاً فيشترى فولاً مدمساً وزياً ورغيفاً ومخللاً . ويضع له ذلك كله على النافذة التي بين الحجرتين ويظل الشيخ متردداً بين طعامه ودرسه حتى يفرغ من الأكل . وكان ربما نطق وفه محشو . فنضحك : فلا يزال . فقد كان حلماً رحيماً لا يقسو علينا ولا يعنف بنا ، وأحياناً يادح الناظر مقبلاً من بعيد فيشير إلى أحدنا وهو يحاول أن يبلغ اللقمة العظيمة ويتكلم في آن معا ، ويدرك الصبي مراده فيتخطى النافذة إلى حجرة المعلمين وينقل إليها ما بقي من طعام الشيخ ثم يرتد - وثباً من النافذة - إلى مقعده ويمر الناظر بسلام ، فيقول الشيخ لأحدنا ، وهو يشير إلى النافذة « هات . هات . » .

وكانت ساحة المدرسة واسعة جداً ، فكنا في أوقات الفراغ نتبعثر فيها ونلعب ما بدا لنا أن نلعب - الكرة أو سواها - وكنا نتخذ الكرة من الجوارب القديمة أو من بذور « ثمر الدوم » وهو ثمر لبني قلب الحلاوة ولكن نواته عظيمة تصلح أن تكون كرة صغيرة نتقاذفها أو نضربها بأرجلنا :

أما فريق كرة القدم ، فكان شيئاً رهيباً : ذلك أن أعضائه جميعاً رجال كبار . وكان بعضهم لا يعد تلميذاً بالمدرسة إلا على الحجاز . وأذكر أن الناظر جمع من تلاميذ المدرسة نفقات التعليم لأحدهم ، وكان لاعباً مشهوراً ، وكان اسمه « سليمان » ولكننا كنا ندعوه « سالي مان » لأن وجهه كان أبيض مشرباً بالحمرة كوجوه الانجليز . وكان يدخن « البية » قد كنا نراه إلا وهي بين شفقيه ولا أدري ماذا كان مبلغ علمه بالانجليزية ، فقد كنت صغيراً . ولكنني أدري أنه كان يتكاف رطانة كراتنة الانجليز . وكان له زميل في فريق الكرة اسمه « أبو تيفه » - أي توفيق - وكنا نحن الصغار نسمع أنهما لا يلعبان إلا إذا شربا خمرأ . فأما « سيلي مان »

فلا يبعد أن يكون هذا شأنه ولكنى لا أصدق أن « أبا تيفه » كان يفعل ذلك أى يسكر قبل اللعب ، فقد كان وديعاً كريم الشيم ، وهادئاً رزيناً : ولا نكران أن هذا لا يثنى الولوع بالشراب ، ولكنى لم أر الرجل قط - فقد كان رجلاً لا صديقاً مثلنا خارباً عن طوره ، لا فى ساحة اللعب ولا فى المدرسة . وبعيد فيما أرى أن يكون مثله سكيراً .

وكانت للمدرسة عناية خاصة بطعام فريق الكرة ، فكانت مائدتهم حافلة مثقلة ، بل كانت المدرسة تشتري لهم « المخلل » فى سلطانيات صغيرة لتشجدهم فى الطعام وكان عليها هنا يستدعى منها التساهل مع بقية اللاميد ، فكان كل من معه قرش منا يقف عند حاجز البوابة قبيل وقت الطعام وفى يده القرش أو الملاليم ويصيح بعم أحمد « الطرشجى » هكلنا « هات شوية بنكلة » أو بأكثر أو أقل ، فيناولها سلطانية فيها ما طلب فيرتد بها ، ويظل يحملها حتى يندق الجرس فيدخل بها حجرة الطعام ، ولم أر مثل هذا فى مدرسة أخرى من مدارس الحكومة .

مرض أبي بعد شهور قليلة من دخولي مدرسة القرية الحكومية ، وصار كل من في البيت يلغظ بأن زوجته التركية سمته ، أو هي لم تسمه ، وإنما دأبت على إطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ ، بما لا يعرف أحد ، ليحبب أبي في هذه الزوجة ، ويغض إليه أمي ، وكان أبي يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل ، وأنها مما يلفقه الخيال بتأثير الغيرة ولكن أمي كان قد أصابها سقم شديد واضطراب عصبي حنيف فعني أخني الأكبر بما أشج من أن هذا بعض ما جره سحر المشعوذ عليها ، فراقب بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوماً شيخاً يدخل ، فتبعه من حيث لا يشعر فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح ، وأوقد ناراً ، وذبح أرنباً ، وكتب على لحمه كلاماً وعلقه في الهواء ، ورمى في الموقد بخوراً فأطلقه وراح يقرأ ويعزم ، وأخى يرقبه ، ثم خطر له أن يطلع أبي على ذلك فأغلق عليه الغرفة وأوصد باب البيت أيضاً وحمل مفتاحه معه وذهب فجاء بأبي وأراه ما رأى فشق الأمر على أبي فطلق المرأة .

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدري بماذا ، ولزم البيت بضعة شهور كان الطبيب يعود فيها كل بضعة أيام مرة ، ولكنه كان فيها يبدو لي صحيحاً معافى ، لا سقم به ، فقد كان يشرب القهوة على عادته ، ولا ينفك يدخن سجائره المألوفة ويأكل طعامه المعهود - السمك المسلوق والأرز والساكهة - وكل ما تغير من أمره واختلف من حاله أنه كف عن النزول إلى المكتب . وأن الكاتب وأخى كانا يصعدان إليه بالأوراق فيطلع عليها ويشير بما يرى .

وعلى من المدرسة عصر يوم ، فلقيني الكاتب على الباب وسألني
« أين عم محمد » فقلت لم أراه ، فأخبرني أنه ذهب ليحيى بي من المدرسة
لأن أبي يريد أن يراني فيظهر أنه ذهب من طريق وعدت أنا من طريق :
ودخلت البيت فألقت في فئائه نفراً من أقاربنا جلوساً على الكراسي
فسلمت فقال أحدهم « أصعد . أصعد . أبوك يطلبك . »

فلم أفهم ، وصعدت على مهل ، ودخلت على أبي ، وأنا أنتظر أن
أراه قاعداً على « الكنبه » فإذا به راقد على مرتبة مفروشة له في وسط
الغرفة ، وعند رأسه مصحف ، فأدبرت عيني في الغرفة ، فألقت النساء
من أهمل قاعدات حول المرتبة ، مطرقات ، وفي أيديهن مناديل ، يرفعنها
إلى عيونهن ويكفكن بها الدموع ، فنظرت إلى أبي ، فأشار إلى بعينه
فأنحيت عليه فقلبي ، ونهضت ، وأنا غير فاهم وهممت بأن أدور وأخلع
أثيابي ، وإذا بالنساء يصحن ويولولن ، وإذا بأى تتناولني وتميل على
رأسى وهي تقول « أبوك مات » .

أبي مات !

لم أفهم هنا ، ولم يحدث الخبر في ذهني صدمة ما ، فقد رأيت أبي ،
كما اعتدت أن أراه ، لم يتغير وجهه ، ولا نظrote ، ولا ابتسامته ، ولم
يختلف شيء سوى أنه راقد على مرتبة ، بدلاً من السرير حتى بعد أن
ولدت النساء ، رددت عيني إليه ، فرأيت ابتسامته مرتسمة على شفتيه
وفي عنيه ، فثبتت طرفي إلى الباكيات الناعحات ، ثم عدت أنظر إلى أبي
فراعني أن الابتسامة ثابتة ، كأنها متحجرة ، وأن العين لا يريق فيها ولا
ضوء ، وأنها كالزجاجة ، وأن المعنى الذى لمحت له لما أنحيت عليه ليقبلي
قد خبأ وانطفأ فبنت ولكن منظرأ جديداً شملني وصرفني عما وقع في
نفسى من هذا الموت العجيب فقد تشددت جذتى وتحملت على نفسها ،

وركعت إلى جانب ابنها وأدنت أصابعها برفق من حينه فأطبقت عليهما
الجفون ولثمت جبينه ونهضت تشمق وتكاد تخنق :

ولم يبق لي مقام بين هؤلاء الباقيات ، فأنحسرت إلى فناء البيت
حيث الرجال وكانوا ييكون ولكن في صمت ، ففي الوسع احتملهم ،
وضمني أخي الأكبر وأجلسني إلى جانبه ويده على كفي والدموع تنهمر
من عينيه ، وأنا كالصنم وأذكر أنني خجلت ، وحاولت أن أبكي ودعكت
عيني بأصابعي ولكن العبرة لم تسعفني ولم تنجذني وكنت لا أزال غير فاهم
هذا الموت الذي أثار هذه الضجة الشديدة في بيتنا - فوق ونحت - وترك
الفساء يظن الرجال ييكن مثل النساء .

ولا أطيل . أقيم المآتم واقتصر فيه على يوم واحد ، وكان مآتما ككل
المآتم فلا حاجة إلى كلام فيه ولكن أخي بعد انقضاء الأيام الثلاثة
صعد إلى حيث كانت أمي جالسة ، وأنبأها أن المآتم كلف خمسمائة جنيه
فدهشت ولم تصدق وقالت أن هذه ثروته ففى أى شيء أنفقها بل بددها
في يوم واحد ..

فناداني وكنت قريباً منهما أسرع وأرى ودفع إلى ورقة فيها أرقام
وقال : هذا ابنك يذهب إلى المدرسة ويعرف الحساب فليقل لك جملة
الأرقام ماذا تبلغ : . فجمعت الأرقام فإذا هي كما قال خمسمائة جنيه !
لا تنقص ملياً واحداً .

ولم يتغير شيء من حالنا في الشهرين التاليين سوى اختفاء أبي فقد
كان المال الذي تركه كثيراً ولكن أخي بعد ذلك طلق زوجته وسرحهما
وتزوج جارة لنا كانت عينه عليها ولا شك واتخذ لها بيتاً مستقلاً
فاحتجنا أن ننقل إلى بيت صغير بعد انتفاء الحاجة إلى البيت الكبير

الذى كنا فيه فبدأت متاعبنا من ذلك اليوم فقد أهملنا أخى وبخل علينا
بالمال وصار يقترب علينا ويغلق على زوجته الجديدة حتى بدد كل ماترك
أبى فى نحو ثمانية شهور .

وكان لجدي أرض وكانت أمى هى الوصية علينا فزور أخى
توكيلا منها له وباع الأرض وبعثر ثمنها فيها كان يلهو به ونحن لانعلم
فلما علمت أمى لم تصنع شيئا وقالت أنها لانستفيد شيئا من أن تنزل به
ما يستحق .

وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام واللبن والسكر والسمن فلو جاءنا
ضيف لكأننا فضيحة وكنت واقفا على عتبة الباب أنظر إلى صبيان
الحارة وهم يلعبون فرحين مسرورين لا يكرههم شيء ولا يفكرون
في بن أو سكر ينقصهم ، وإذا بشيخ فاضل من زملاء أبى فى الأزهر
مقبل على فقزعت وهممت بأن أتوارى عنه عسى أن لا يرانى فيمضى فى
سبيله ولكنه لجنى فنادانى ، وقبلنى وقال « ستك الحاجة كيف حالها »
قلت « بخير ولك الشكر » قال إصعد إليها وقبل لى يدها وقل لها إنى أريد
أن أقابلها .

ولم يكن فى هذا غرابة ، فقد كان أيام الدراسة ملازما لجدي ،
وكان ربما أقام فى بيتنا - مع أبى - الأسبوع والأسبوعين . وكانت جدتي
تعده كابنها ، ولكنى أشفقت من زيارته ، ففى البيت شيء يقدم لضيف
كريم مثله ، فإذا نقول له . وبأى شيء نعتذر .

ولم أر لى حيلة فأنبأت أمى وجدتي ، ثم انحدرت إليه وصعدت به
فجلس يحدث جدتي وأنا واقف وظهرى إلى الحائط ، وعقلي شارد وإذا
بى أسمعته يقول أنه كان قد خطف من أبى مبلغا آخر ، فثالثا فرابعا
ليشتري بذلك أرضا لنا ، ولكن الأجل وافى أبى . فبقى المبلغ معه ،

ولا علم لغير الله بذلك وقد خاف الشيخ أن يتزل به قضاء الله فيضيع
مالنا ، فهو يريد أن يبرىء ذمته ويرده إلينا .

وقد كانت هذه بداية الفرح ، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا
المبلغ وتيسر الانفاق على تعليمنا ، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم ،
وإنصافاً له ، واعترافاً بفضله ، أقول أنه المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة
من كبار العلماء رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء فما وسع أحدا منا في
حياته أن يرد له ذرة من هذا الجميل الذى لن ننساه ولا نجهده :

انتقلنا من اليسر إلى العسر ، ومن السعة إلى الضيق ، واستغنينا عن « عم محمد » وامراته « حليمة » .. أو استغنيا همأنا ، سيان ، فما كنا خاضعين ، وإنما كانا منا فيما نحس ونعلم ، وأحكمنا تدبير أمورنا في حدود المورد الذي أسعفنا به حسن الحظ ، وزايلنا الشعور الأول بالسخط والألم ، وألفنا حياتنا الجديدة وإن كانت حافلة بضروب الحرمان مما كنا ننعم به في حياة أبي ، وكل شيء في الدنيا عادة ، حتى النسل والعبادة ، كما يقول النواصي ، من قصيدة في ابن الربيع :

أنت يا ابن الربيع علمتني النسل

وعودتني ، والخير عادة

ومضت الأيام ، وانتظمت الأمور واستقرت الأحوال بعد القلق والاضطراب ، وكانت نفقات التعليم ، على ضآلتها ، فقد كانت ستة جنيهات في العام أثقل ما نضطر إلى الاحتيال له وتدبيره وفي وسع التآريء أن يتصور حياة من تثقل عليه ستة جنيهات في العام . فجاءنا يوماً قريب لنا ، واقترح علينا أن نطلب من الوزارة أن تعفني من نفقات التعليم ، فاستحسننا ذلك وقلنا عسى ولعل ، وشرعنا نعيّن الوجوه التي ينبغي أن نحول إليها ما كان يأخذه التعليم . وكذب قريبى الطالب وأرايه فقرأ أنه على أمي فسرّتها عبارة وما فيها من القصد والترفع عن الاستجداء والضراعة ، قالت حسبنا التعليم بالمجان مثله :

وغاب قريبتنا أياماً ثم جاءنا نبأ قال « ياسقي » .

قالت أمي « نعم . خير إن شاء الله » .

قال : « الغاية تبرر الوسطة »

قلت : « يعنى »

قال : « إن هذا الطلب لا يرجى أن يجاب إلا إذا عززناه بقرشين »
فصاحت به : « إيه .. هل تريد أن تقول أن فلاناً — تعنى ناظر المدرسة —
يطلب رشوة .. »

فقلت أُمى معترضة : « إذا كنا سنرشو الناس ، ونحن فقراء ، فأولى
أن نؤدى نفقات المدرسة ونستريح ونعفى ضمايرنا من هذا الإثم »

قال : « ولكن الإعفاء سينتلى طول مدة التعليم »

قلت : « ولو »

فانصرف قريبنا ساخطاً على هذا العناد متعجباً لهذا النجرح الذى لا موجب
له فى رأيه ، ولكنه لم يقنط ، فأعاد الكرة مرة أخرى ، حتى كرهت
إلحاحه وآثرت أن تريح نفسها من لجلجته ، فأقصدته أربعة جنيهات زعم
أنه سيفرقها على رجلين .

ومر شهر ، ودنا موعد افتتاح المدارس ونحن كل بضعة أيام نسأل
قريبنا عن الطلب ماذا صنع الله به ، وهو يقول أنه يتعقبه فى كل مرحلة
من مراحلهِ ، ثم فأجنا يوماً بالبشرى ، فقرحت جدتى واغتمت أُمى ،
واضطربت أنا فلم أعد أدري أينبغى لى أن أفرح كجدتى أم أحزن كأمى .

وفتحت المدارس ، فأهملنا أن نعد مقدار القسط الأول ، وهو جنيهان
وجاءنا قريبنا يقول أنه أخطأ ، وأن الوزارة إنما قبلت أن أتعلم « بنصف
مصروفات » فقالت أُمى بعد انصرافه « صبيعتنا أربعة جنيهات وارتكبنا اثماً
لنقتصد ثلاثة جنيهات » وناولنى جنبها — قيمة نصف القسط الأول —
وقالت : اذهب به إلى المدرسة والأمر لله .

فذهبت إلى المدرسة وفي جيبي الجنيه - ولكن الله ألهمني ألا أذهب إلى
كاتب المدرسة فاستأذنت على الناظر وقدمت له الجنيه فسألني وهو ينظر إليه
وللى « ما هذا يا بنى » .

قلت « جنيه » .

قال « ظاهر ، ولكن لماذا تعطينه » .

قلت « إن فلانا قريبنا أخبرنا أن الوزارة قبلت أن أتعلم بنصف المصروفات
فهذا هو القسط الأول » .

وكان الرجل رقيق القلب عظيم الحنان ، وكانت بينه وبين أبى صداقة
فرايت الدمع يترقرق فى عينيه وهو يقول .

- « أنا آسف يا بنى ، لقد رفضت الوزارة الطلب ، والله ما قصرت
فى السعى لك ولكن هذا ما كان » .

فشكرته وأعدت الجنيه إلى جيبي ، ورجعت به وبالحبر ، آخر النهار
إلى أمى .

ودفعنا القسط كاملا :

وسألت أمى قريبنا عن الحقيقة فاعترف لها بأنه كذب عليها وأنه أخذ
الجنيهات الأربعة لنفسه ، ووعد أن يردّها عند الميسرة ، وقد مات وهى
فى ذمته .

وقلت لى أمى يوما « لست آسفة إلا على خديعتنا ، وما أثمرته من
زيادة الضيق الذى كنا فيه ، أما التعليم فأتى أحمد الله الذى مكنتى من أداء
نفقاته فى مراحلها كلها ، فما كان يسرنى أن تشعر أنك دون أندادك ،
وإنك رقيق الحول ، وهم فى سعة ، وكنت أخشى أثر هذا فى نفسك فالحمد
لله الذى حرّك هذا الشعور » .

وأخذت الشهادة الابتدائية فقالت أمى « تذهب إلى المدرسة الخديوية
وتقدم إليها طلب التحاق بها » ولكن أخى وقربى الذى أسلفت ذكره جاء
ليقننا أمى بأن تقبل توظيفى فاستغربت وقالت : « ولكنه طفل » .

قال قبرى « ان نفقات التعليم الثانوى كبيرة فن أين يجيبين بها » .
وعزز أخى رأيه . وألح الإثنان عليها إلحاحاً شديداً وهى تأبى وتقول
أنها لا ترضى بذلك ، وأن ابنها يجب أن يتعلم ، وأن أوان الوظيفة
وكسب الرزق لا يزال بعيداً فاغلظ أخى لها فى الكلام وعنف معها قبرى
فطردتهما وأمضت مشيتها وأدخلت المدرسة . وقد بقيا زمنا غير قصير
لا يجترئان على دخول بيتنا ، ولكنها كانت تبعث بى إليهما لأزورهما ،
وتوصينى ألا أقطعهما ، وتقول انه خلاف أدى إلى جفوة بيننا وبينهما ،
وقد فعلت ما تريد وقواها الله عليه فلا مسوغ لبقاء النبوة ولا موجب لها
على كل حال فيما بينى أنا وبينهما ، وهى لا تضمر لهما بغضا ، ولكنها تخاف
لعبهما ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما ، فخير لى أن يبقيا بعيدين حتى
أفرغ من التعليم .

واعترضت الحمى طريقى فى السنة الأخيرة من التعليم الثانوى وكادت
تضيقنى بل تقتلنى . وكان قريب لنا من الأطباء يتولى علاجى ، ولكن
العلاج لم يكن يبدو له أثر ففضيت الصيف كله أوجله راقداً لا أكاد أمى
شيئاً ، من شدة الحمى .

وفى إحدى الليالى ثقلت على وطأة المرض جدلاً ، حتى جزعث أمى
على ما أخبرتنى بعد ذلك ، وكادت توقن أنى هامة اليوم أو الغد ، لولا
أن الأم لا تفقد أملها ، وكنا فى بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون
ساحة أو ملعباً ، وكانت نوافذ الحجرة التى أرقد فيها تطل على فناء البيت
وفيه شجرة جميز عظيمة ، تصل أغصانها اللهاية فى الهواء إلى النوافذ ، وكنا

نضع قلة الماء على أحد هذه الشايك لتبرد ، فحدث أن مدت أُمى يدها إلى قلة تريد أن تشرب ، ، فقلت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء ففزعت أُمى واضطربت جداً ، وكبر ظنّها أن هذا نذير بموتى ، وخطر لها أن تتحدر إلى الفناء في فحمة الليل ترى أسلمت القلة أم تحطمت .

وكانت لا تشك في أنها تكسرت فما يعقل أن تقع من أعلى طبقة في البيت وأن تنجو من الهشم ، ولكنها نزلت مع ذلك ، لأن القلة لم تكن عندها في تلك اللحظة إلا رمزاً ، وكانت سلامة القلة معناها البشرى بتجاتى .

ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طرية كثيرة البلل تحت ظل الشجرة ، أولاً أدري كيف أعلل هذه النجاة من العطب الذى كان ينبغى أن يكون محققاً .

ولقد حدثتني أُمى بعد ذلك بزمان طويل وهى تروى لى هذه القصة ، أنها بكّت ، وأنها عجزت عن القيام ، فظلت قاعدة على الأرض غير عابثة بالبلل والرطوبة والوحل ، وفى يدها القلة والدموع تهمو من عينيها دموع الأمل والاستبشار .

وقضت ساعة فيما تحس ، ثم نهضت فصعدت ، ودنت منى وأنا نائم ، ولمست وجهى بكنهها ، مترفقه محاذرة ، مخافة أن نوقظنى ، فإذا أنا أتصيب هرقاً ، وإذا بشيائى كلها — كما قالت — عصرة .

وأصبحت وقد ذهب غنى وقدة الحمى وأخذت أتمائل . .

ذكریات مدرسية

سأقتصر في هذا الفصل على طائفة من الذكريات تجربتها من عهد كنت فيه تلميذاً وعهد تال كنت فيه مدرساً .

وما كنتي بالمعالم الكبرى والخطوط الرئيسية التي تغني عن التفاصيل ولست أرمى إلى غاية من هذا التصوير سوى ما يمكن أن يستفاد من مقابلة عهد بعهد ومواجهة ماضٍ بحاضر . فثلاً يمكن بسهولة أن تصوروا حال التعليم الابتدائي إذا قلت أن تلميذاً كان معنا في المدرسة ذل الشهادة الابتدائية فعين في السنة التالية مدرساً لنا في السنة الرابعة التي تعد لنيل الشهادة الابتدائية : وأبلغ من هذا في الدلالة أنه كان يدرس لنا ما كان يسمى « الأشياء » وهي عبارة عن معارف عامة وكان تدريسها يومئذ باللغة الإنجليزية . وارسم لي خطاً آخر تتم به الصورة فأقول ما قلت في فصل آخر إن ناظرنا كان يقول عن نفسه أنه جاهل جاهل ولكنه إداري .

والآن انتقل إلى طائفة أخرى من الصور للمدارس الثانوية :

كان التعليم الثانوي انتقالاً بأدق المعاني فقد صار كل ما في المدرسة انجليزياً — الناظر والمدرسون والتعليم — ما عدا اللغة العربية .

وأنا إلى هذه اللحظة لا أعرف كيف كنت أنجح في الامتحانات ، وأكبر ظني أنهم كانوا يترفقون بنا ويعطفون علينا ، ويتساهلون معنا ، ويتركونا

ننجح على سبيل الاستثناء . وأدع خبري وأقتصر على نفسي فإني أعرف بها ، فأقول إني ما استطعت قط أن أفهم علوم الرياضة ، أو أن أقدر فيها على شيء ، ومع ذلك كنت أنتقل من سنة إلى أخرى بلا عائق . وكان الأساتذة يخلقون فيهم القفز ومنهم الرقيق . وأذكر أن أحدهم كان يذكرني درسه بالكتاب الذي حفظت فيه القرآن الكريم فقد كان يملئ درس الجغرافيا ، فإذا كان الدرس التالي طالبنا به محفوظاً عن ظهر قلب ، وكان يقف أمامه التلميذان والثلاثة دفعه واحدة وعلى مكتبه الكراسة والتلاميذ يتلون وهو يسمع ، ثم يضع في كل ركن واحد من الحافظين ليمتحن زملاءه . وكنت لا أستطيع أن أحفظ شيئاً عن ظهر قلب فكنت أحبس بعد كل درس في الجغرافيا حتى كرهتها وكرهت حياتي كلها بسببها .

وكان لنا مدرس آخر من أطرف خلق الله وأرقهم حاشية وأعفهم لفظاً ، فكان إذا ساءه من أحدنا أمر وأراد أن يوبخه قال له . تهج كلمة بليد مثلاً أو مجنون أو غير ذلك كراهة منه لإسناد الوصف إلى التلميذ مباشرة . ولم يكن تدريس اللغة العربية خيراً من تدريسها في الوقت الحاضر ولكننا كنا أقوى فيها من تلاميذ هذا الزمان ، لأدري لماذا . وكان المفتش الأول للغة العربية المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، وكان من أعلم خلق الله بها وبالصرف على الخصوص وكان رجلاً طيباً ووقوراً مهيباً ، فكان إذا دخل علينا يسرع المدرس إليه فيقبل يده فيدعو له الشيخ ولا نستغرب نحن شيئاً من ذلك بل تراه أمراً طبيعياً جداً .

واعتقد أن منظر أساتذتنا وهم يقبلون يد الشيخ حمزة كان من أهم ما أغرس في نفوسنا حب معلمينا وتوقيرهم ، فإني أراني إلى هذه الساعة أشعر بحنين إلى هؤلاء المعلمين ولا يسعني إلا إكبارهم حين التقى بواحد منهم وإن كنت لم أستفد منهم شيئاً يستحق الذكر . ومن لطائف الشيخ حمزه

أنه كان يقول ملاحظاته على المعلم على مسمع منا : ولكنه كان لا يكتب في تقريره إلى الوزارة إلا خيراً . وقد اتفق لي بعد أن تخرجت من مدرسة المعلمين وعينت مدرساً في المدرسة السعيدية الثانوية أن جاء الشيخ حمزة للتفتيش فاحتضنت هذه الفرصة وقلت : « يا أستاذ » ما هو الاسم العربي لهذا الدخان والتبغ تارة أخرى ؟ . « فقال : انتظرنى ياسيدى حتى أنظر فى « الكناشة » وأخرج مما يلى صدره تحت القفطان كراسة ضخمة لا أدرى كيف كانت مخبئة غير بادية وقلب فيها ثم أنشد هذا البيت :

كأنما حشحنوا حصا قواده

أو أم خشف بلدى شت وطباق

ومضى عنى . وفكرت أنا فى كلمة الطباق التى جاءنى بها الشيخ ، فاستحسنتها ورأيت أنها على العموم خير من كلمة تبغ نعرب بها اللفظ الإنجليزى أو الفرنسى « توباك أو توباكو » .

ومن حوادث الشيخ حمزة معى أنى كنت أؤدى الامتحان الشفوى فى الشهادة الثانوية وكان هورئيساً للجان اللغة العربية ، فلما جاء دورى اتفق أنه كان موجوداً ، فلما انتهت المطالعة وجاء دور المحفوظات وكان لها مقرر مخصوص سألنى ماذا أحفظ . وكنت فى صباح ذلك اليوم قد قرأت خطبة قصيرة للنبي ﷺ فعلق بذهنى وألهمنى الله أن أقول إني أحفظ خطبة للنبي . ففرح الشيخ جداً وخلع حذاءه وصاح « قلى يا شاطر الله يفتح عليك » وسترنى الله فلم أخطئ ، فاكتفى الشيخ بهذا وأعفانى من النحو والصرف والإعراب .

ولكنه في مرة أخرى كاد يضيع على سنة . وكنت طالبا في مدرسة المعلمين وكانت لجنة الامتحان في اللغة العربية برياسته فقال أحد أخصائيي بعد خروجه من الامتحان : إن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذي يقع عليه الاختيار ، ولم تكن تدرس نحو أو لا صرفا في المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب فأبقنا بالفشل وجاء دوري فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه وناولني كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت ، ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهي « أعلم أن العدوان على الناس في أموالم ذاهب بآمالهم في تحصيلها » الخ . فقال : ضع الكتاب . فوضعت ، فسألني عن العدوان والفعلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ المختلفة التي يكون عليها الفعل « واعتدى » مثل « اعتديا » للماضي المثني « واعتديا » للأمر ، فسألني لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سبباً وقلت أنه لا سبب هناك سوى أن العرب نطقوا بهما هكذا ، فدهش لهذا الجواب وقال : « ولكن لهذا سبباً » ، قلت « إن اللغة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعة بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكفي ولا داعي للبحث عن سبب مخلق » . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه وحدثت نفسي أنه خير لي وأكرم أن أسقط بخناقة من أن تكون علة سقوطي الجهل . وأصررت على رأيي وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن المرحوم الشيخ شاويش - وكان عضوا في اللجنة - تدارك الأمر ، فقد نظر في ساعته ثم ألفت إلى الشيخ حمزة وقال « العصر وجب يا مولانا » فنهض الشيخ وهو يقول « أي نعم » وذهب للصلاة ونسيتي فكان في هذا نجاتي . وقد حفظت هذا الجميل للشيخ شاويش ، وكانت هذه الحادثة بداية علاقتي به .

ولم تكن المواد كثيرة أو طويلة في مدرسة المعلمين . ويكفى أن أقول أنه كانت لنا في الأسبوع ثمانى ساعات لا نتلقى فيها أى درس ، فترك هذا التخفيف وقتاً كافياً للمطالعة الخاصة .. وكان أساتذتنا وناظرنا يشجعونا عليها بكل وسيلة ولا يفوتهم مع التشجيع والحث أن يوجهونا وينظموا لنا الأمر ، وأحسب أن هذا نفعتنا جداً .

وقد صرت معلماً بعد ذلك وظللت أشتغل بالتعليم عشر سنين ، خمس منها في الوزارة وخمس في المدارس الحرة ، وفي هذه السنوات العشر لم أحتج أن أعاقب تلميذاً أو أوبخه أو أقول له كلمة نابية . ولم يقصر التلاميذ في محاولة المعاكسة ولكنى كنت حديث عهد بالتلمذة وبشقاوة التلاميذ ، فكنت أعرف كيف أقع هذه الرغبة الطبيعية في الشقاوة ، وكانت طريقي أن أتجاوز عن الذى لا ضير منه فلا أشغل به نفسى . والتلاميذ مثال ذلك أن يحتاج التلميذ إلى قلم أو نشافة فيطلبها من جاره ويكلمه في ذلك فلا أعد هذا الكلام الذى لا يباح ، ولا أقيم ضجة من أجله وقد حدث يوماً وأنا مدرس في المدرسة الحديوية أن دخلت فرقة فألقيت على مكتبي كل أدوات الرياضة مرصوفة على نحو لاشك أنه متعمد وكان تلاميذى لا يجهلون كرهى للرياضة ، وكنت أنا لا أكتفهم أنى أعد نفسى جاهلاً بها حماراً في علومها ، وكان غرضهم من رص هذه الأدوات أن يعابثون عسى أن أثير الضجة التى يشتهونها ولا يفوزون منى بها ولكنى لم أفعل بل اكتفيت بأن دعوت الفراش فحمل هذه الأدوات ووضعها في مكانها ثم بدأ الدرس . واتفق يوماً آخر أن دخلت الفصل فإذا رائحة كريهة لا تطاق ، وكان الوقت صيفاً والجو حاراً جداً فضايف الحر شعورى بالتنغيص من هذه الرائحة الثقيلة . وأدركت أنها

هي المادة التي كنا ونحن تلاميذ نضعها في الدواة مع الحبر فتكون لها هذه الرائحة المزعجة . فقلت لنفسي أنهم ثلاثون أو أربعون وأنا واحد وإذا كانت الرائحة القبيحة تغني نفسي فإنها تغني نفوسهم معي أيضا . فحالم ليس خيراً من حالي ، والإحساس المتعب الذي أعانيه ليس قاصراً على ولا أنا منفرد به ، وأنهم الأغبياء لأنهم أشركوا أنفسهم معي وقد أرادوا أن يفرّدوني بهذه المحنة : والفوز في هذه الحالة خليف أن يكون لمن هو أقدر على الصبر والاحتمال . فتجاهلت الأمر وصرت أغلق النوافذ واحدة بعد أخرى لأزيد شعورهم بالضيق والكرب فلا يعودوا إل مثالي بعد ذلك ، وقد كان . تصبرت وتشددت ودعوت الله في سرى أن يقويني على الاحتمال ، ومضيت في الدرس بنشاط وهمة لأشغل نفسي عما أعاني من كرب هذه الرائحة الملعونة . وكنت أرى في وجوههم أمارات الجهد الذي يكابدونه من التجلد مثلي فأسر واغتنبط وازداد نشاطاً في الدرس وأغضاء عن يرفعون أصابعهم ليستأذنوا في الكلام فتد كنت عارفاً أنهم إنما يريدون أن يستأذنوا في فتح النوافذ عسى أن تخف الرائحة ويلطف وقعها .

وظللنا على هذا الحال نصف ساعة كادت أرواحنا فيها ترهق ، ورأيت أن الطاقة الإنسانية لا يسعها أكثر من ذلك ، وأن التلاميذ خليقون أن يتمردوا إذا أصروا على عنادى المكتوم ، واغتنتم فرصة اصبيح مرفوعة وسألت صاحبها عما يريد ، فقال أنه يريد أن يفتح النافذة لأن الحر شديد ، قلت افتحها ، وفتحت النوافذ كلها : وتشهدنا جميعاً واستأنفنا الدرس ولكن بفتور لشدة ما قاسينا من رياضة النفس على احتمال مالا يطاق . وانتهى الدرس وخرجت فخرج ورأيت ثلاثة أو أربعة من التلاميذ ولحقوا بي ، وقال لي واحد منهم أنهم يأسفون لما حصل وأن الأمر كان مقصوداً به

غيرى ، وأنهم يطلبون الصفح ، فسررت ولكنى تجاهلت وسألهم عما
يعنون . قالوا . الرائحة الكريهة التى كانت فى الفصل . قلت « رائحة . أى
رائحة . . لأننى مزكوم ولهذا لم أشم شيئاً فلا محل لاعتذاركم » ومضيت
عنهم ، وكان هذا درساً نافعاً لهم ولو أنى عاقبت أحداً لما أثمر العقاب إلا
رضاهم عن نفوسهم لأنهم استطاعوا أن ينجسوا على ، وأن ينجح . هم
عندهم الطبيعى فى مثل سنهم .

وفى آخر سنة من اشتغالى بالتدريس توليت أمر مدرسة ثانوية فقلت
للأساتذة : إننى ألغيت العقوبات جميعاً فلا حبس ولا عيش حاف ولا شيء
مما اعتاد المعلمون أن يعاقبوا به التلاميذ .

ونظرتى هى أن المدرس الذى يحتاج إلى معاقبة تلميذه لا يصلح لهذه
المهنة وخير له أن يشتغل بغيرها وأن العلاقة بين المعلم وتلميذه ينبغى أن
تقوم على المودة والاحترام ، وأن يكون أكبر وأقوى عامل فيها هو شعور
التلميذ بأن المدرس والد له ينبغى له الخير ويخدمه ويفتح له نفسه ويقوى
مداركه وينمى استعداداته ، وأنه لا يلزمه بدرس ولا يفرض عليه شيئاً بل
يرغبه فى الدرس ويحبب إليه التحصيل .

وعلى هذا فليس لأحد من المعلمين أن ينتظر منى معونة على ضبط
النظام ، وقد كان . قضيتا فى هذه المدرسة سنة كاملة لم يشعر فيها التلاميذ
بسلطان أو سطوة ، وإنما شعروا أنهم أبناء لنا وأتينا إخوان كبار لهم
وأصدقاء نافعون .

ولم أكتف بهذا بل ألغيت « الجرس » الذى يذق إيداننا بابتداء الدرس
أو انتهائه لأننى لم أر حاجة إليه بعد أن أصبح التلاميذ يحرصون على الحضور

والمواظبة من تلقاء أنفسهم وبدافع من حبهم للمدرسة ورغبتهم في الوجود بها مع إخوانهم المدرسين حتى لقد كان الواحد منهم يمرض فيحضر ، وبهذا استغنيت أيضاً عن الدفاتر الكثيرة التي تستعمل في المدارس والتي تحتاج إلى موظفين كثيرين لاداعي لهم .

وقد كنت أحب أن أظل في هذه المدرسة لأرى نتيجة التجربة ، ولكن الحركة الوطنية بدأت في صيف ذلك العام وجرفنا جميعاً تيارها الزاخر فهجرت التعليم إلى الصحافة .

ولو عدت إليه الآن لكان من المحقق أن أنفق فقد اختلت الحال جداً وانقلبت الأوضاع .

- ١٢ -

كان عزائى فى تلك الأيام قول القائلة :

« راح ييغنى نجـوـة من هـلاك فهلك
والمنـى ايا رصـد للفتى حيث سـلك
كل شىء قاتل حين تلقى أجـلك »

أى والله ! فقد تبينت أن مصر توشك أن تثور ، فقلت أعفى أهلى من المتاعب التى تيجر إليها الثورات واضطراب جبل الأمور ، فحملتهم إلى بيت جدى - لأمى - « على حدود الأبد » ، وأصلحت فيه شقة اتخذتها لنا ، ومضت شهور والثورة لا تقوم ، حتى خالجتى الشك فى صحة رأيى ، وكادت تفتى بقومى تذهب ، وكنت فى تلك الأيام أعانى أشد البرح ، فقد كان عملى فى قلب العاصمة ، وبيتى فى الصحراء ، والمسافة بينهما أكثر من عشرة كيلو مترات أقطع نصفها وزيادة على قدمى غاديا رائحا كل يوم ، ومعى ما يكفى لغدائى ، فلأتى أكره طعام السوق ، وكتاب أقرأ فيه فى فترات الراحة من العمل ، فلما هبت الأمة زاد العناء واشتد البرح ، فقد بطل العمل . وخرج التلاميذ إلى الشوارع مواكب مواكب وكانوا يعتقلون بالمئات ، ويحشرون فى كل مكان يخطر على البال ، حتى فى مسجد محمد على بالقلعة ، وكان الناجون من تلاميذى يرتلون إلى فى المدرسة التى كنت ناظرها يومئذ ، ويقصون على ماجرى ، ويذكرون لى أسماء المعتقلين من زملائهم ، ومكان اعتقالهم ، وكانت العلاقة بينى وبين تلاميذى علاقة أخ كبير بإخوة صغار ، فكانوا لهذا لا يكتموننى شيئاً ، ولا يهجمون

عن مصارحتى بما يلور فى نفوسهم ، وما تضطرب به صلورهم ، ولا يترددون فى مشاورتى حتى فى أنخص الأمور الشخصية ، فكنا نعقد كل يوم اجتماعاً لتدبير ما يمكن تدبيره من وسائل الراحة لإخواننا الصغار المعتقلين من أبناء مدرستنا وكانت عقدة العقد أن المال لدينا قليل ، وأن الوصول إلى المعتقلين عسير ، فكيف نبعث إليهم ما عسى أن تكون بهم حاجة إليه من طعام أو ثياب أو فراش .

ومن حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً ، ففى الوسع الاستغناء عن الأغذية واحتمال النوم على الأرض ، فبقي الطعام والثياب ، ويطيب لى أن أروى أن بعض التلاميذ كان يرتدى عدة أكسية ويدس فى جيوبه ما تتسع له من الآكال الناشفة ، ويقصد إلى المعتقل الذى يعلم أن فيه اخواً له فيقدم نفسه على أنه شريك فيما جر الاعتقال على زملائه ، أى فى المظاهرات وما إليها فيلقون به معهم – وقلما كانوا يصرفونه – فيخلع على زملائه أكثر ما كوم على بدنه ويطعمهم مما حمل ، وكان هذا يزيد المعضل تعقيداً ، لأنه يزيد عدد المعتقلين الذين نحاول تزويدهم بما يفتقرون إليه ، غير أن الوقت كان أضيق من أن يتسع لطول التردد ؛ فكنا نفعل كل ما يخطر على البال بلا حساب للعواقب ، ما دام له غناء إلى حين ، وسهل الأمر قليلاً أن المعتقلات كانت تضيق بمن فيها فيسرح بعضهم ليكون فيها محل لمن يقبض عليهم فى كل يوم .

وليس من همى أن أتحدث عن الثورة وما كان فيها ، وإنما أريد أن أقول أنها زادت عنائى وضاعفت ما كنت أكابده من مشقات ، وكل شىء عادة ، فألفنا التعب كما كنا نألف الراحة والرخد ، وسكننا إلى الأحوال الجديدة الحافلة بالمنغصات والمتعبات ، وانقطع

التبرم والضجر ووطننا أنفسنا بسرعة على احتمال كل ما عسى أن
تجنيء به الأيام .

وكان كل طريق إلى بيتي ، يهوج إلى التراب المتناثر ، فكنت أسلكها
كل يوم ، وأرى الأحداث المبعثرة في كل صباح ومساء ، وتحت ضوء
القمر ، وفي وقدة الظهر ، وفي الظلمة الحالكه ، وفي البكرة المطرولة
فتفغنى هذا وبلد شعوري بالموت ، وثنا استهوى له يهزى منه ، وجعله
فيما أرى وأحس ، أمراً عادياً لا غرابة فيه ولا حكمة له ، حتى لقد صار
يتفق لي بعد ذلك أن أحتاج إلى الراحة بعد طول المشى ، فأقعد على صوى
قبر من القبور الكثيرة في طريقي ، وأشعل سيجارة ، وأروح أدخن ،
وأدندن ، بصوت خفيض ، أو أرسل الصوت بالغناء ، ولا أشعر
بمخرج أو استنكار .

وكان بدء التحول في حياتي أن زويتى ماتت ، وإنى لأومن أن
لكل أجل كتابا ، ولكنى إلى هذه الساعة لا أستطيع أن أعني نفسي
من ثقل الاعتقاد أن الطبيب قتلها ، وهو سكران ، وقد مات هو أيضاً
بعد سنوات : فإلى حيث ألفت ، وما أعرفني شمت بميت سواء ،
ولم يعتمد قتلها ، ولكننا دعوناها - وقد جاعها الخاض - فشمت
رائحة الخمر من فمها ، وفحصها ثم قال لي إن الحالة طبيعية ، ولم يكن
ثم موجب لدعوتي ، وسيحصل الوضع في أوانه ، واكنى بيت فلا داعي
للانظار (كذلك قال والله) وكنت أعاونه ، فتظهر الآلات وشرع
في العمل ، وجر الجنين فاذا الآلة التي طوق بها رأسه قد حفرت فيه
إخلوداً يسع الجنين ، وشغل نفسه دقائق بالجنين ، والتمنفس الصناعي
على غير جدوى ، فألحت عليه أن يتركه ويعني بالأم ، فما ثم شك
في أن الجنين مات ، فرجع إلى الأم ليخرج « الخلاص » فكان والله

يشده كما رأيت الفرق الرياضية تتجاذب شد الحبل بينها بأعظم ما يملك من قوة ، ثم رأى أن هذا لم يجد ، فدرس يده وأخرج الخلاص مقطعا لإربا ، ثم لفها ، وقال ترقد ولا تسقوها ماء ، وأخذني معه ، فقال لي إن الحالة خطيرة ، وإنه آسف . فلم أطق هذا اللف وسألته : « متى تتوقع أن تكون الوفاة . . ؟ إلى أسألك عن هذا لأنني أؤثر أن أكون على بصيرة ، ولا تخش جزعى ، فان واجباتي الآن لا تدع لي وقتا للجزع ، فلم يجبني جوابا صريحا ، وقال : سترى ما يكون صباح الغد .

وعدت إلى زوجتي فأدركت مما رأيت أن النزف يلح عليها ، وأنها تموت شيئا فشيئا ، فبقيت إلى جانبها أقوى نفسها - وأنا يائس - وأشد من عزيمتها . وأبتسم لها وقلبي يتفطر ، وبالغت في التظاهر بالاطمئنان حتى لقد خلعت ثيابي وارتديت ملابس النوم ، ولكنها كانت تحس من نفسها ما لا أحس ، فأوصتني بولدتنا خيرا ، وودعتني ، وجادت بالنفس الأخير ويدي على يدها .

وكاد عقلي يطير ، وهممت بأن أشكو الطبيب ، ولكن ما الفائدة ؟ ! وكيف أثبت تقصيره أو خطأه أو سكره ؟ ! وشق على الأمر حتى لقد تغير رأيي في الناس والحياة الدنيا ، والخير والشر ، وحدثت أكثر من طبيب بما كان ووصفت له ما حدث فكانوا يتعجبون ، ولكن هذا لم يجدي ، ولم يمنع أن طبيبا ثملا قتل امرأتى ، وأين العزاء في أنه غير حامد ، وأن هذا قضاء وقدر على كل حال .

ولم ينجني من الجنون إلا إكبابي على ابن الرومي والاشتغال بتصحيح الأخطاء في ديوانه الذي كنت أستنسخه قبل ذلك وهذه أول مرة نفعت فيها شاعر .

تغيرت جداً بعد هذه الحادثة فأنا فيما أحس وأرى مخلوق آخر غير الذى عرفته فى ثلاثين سنة على أنى مع ذلك ظلت قادراً على كبح النفس فلم يفلت من يدى العنان أو لم أدعه يفلت .

وانقضت الأربعون - وأحسب أن عادة استمرار المأتم أربعين يوماً موروثة من أيام الفراعنة الذين كانوا يبقون الحفنة أربعين يوماً لتحضيرها - فلم أعد أطيق بيت جدى بعد أن خرجت زوجتى من دنياى فيه ، فتركت فيه ما كانت زوجتى قد جاءتنى به فى جهازها واستأجرت بيتاً آخر حملت إليه أثاثنا القديم وعكفت فيه على ديوان ابن الرومى لأصححه على قدر الطاقة .

واتفق فى ذلك الوقت أن عقدت محكمة عسكرية لمحاكمة كثيرين فيما زعموه مؤامرة كبرى ، وكان المتهمون أكثر من عشرين بينهم سكرتير اللجنة المركزية للوفد المصرى الذى كان يفاوض لجنة ملنر بلندن ، وكنت أعمل يومئذ فى « الأخبار » مع المرحوم أمين الرافعى بك فسألنى من نبهت إلى المحكمة لحضور جلساتها . قلت سأحضرها أنا . قال إنه عمل طويل شاق ، فدعة لغيرك ، قلت كلا ، وإن نبى الحاجة إلى عمل مضمن يشغلنى عن نفسى ، ويصرفنى عن التفكير فى أمرى . وما أصبت به فى حياتى . فوافق ودعاً لى بخير ، ولم تدع لى المحكمة العسكرية وقتاً لسواها ، وكانت تعقد فى اليوم جلستين ، وظللت كذلك من يوليو إلى سبتمبر ، وكنت فى مساء كل يوم أعود إلى البيت فأرتدى على الفراش وأناام كالميت ، فنفعنى هذا أيضاً وإن كان أسقمى .

ومن المضحكات أن جريدة الأخبار دعت الأمة إلى الاكتتاب لإقامة تمثال نهضة مصر للمرحوم مختار المثال وبلغت جملة ما جمعته حوالى ستة آلاف من الجنيهات وكانت الاكتتابات تودع بنك مصر أولاً فأول .

ولكن بعض البلهاء ظن أن ما تتلقاه الأخبار من الاكتتاب يحفظ في بيتي أنا ، وكان البيت طبقة واحدة ، وله فناءان ، واحد قدامه وآخر خلفه ، وفيه الفرن وما إليه ، وكان الجدار الخلفي واطئاً ، فأيقظني ذات ليلة صوت جسم وقع في الفناء الخلفي فتوهمت في أول الأمر أن حجراً مزعزجاً أسقطه قط أو نحوه ، ولكنني سمعت بعد ذلك حركة كحركة من يعالج فتح باب ، فهضت ، ومضيت إلى الباب الموصل ، وفتحت شباكته ونظرت فإذا واحد من أهل الحى ولم يخطر لي أنه جاء ليسرق ، فإني في البيت ما يستحق أن يطمع فيه أشد اللصوص قناعة ، وظننته جاء يطلب شيئاً ، فحييته وإن كان قد أسخطني عليه أن يجيء في هذا الوقت المتأخر ، وفتحت له الباب وقلت له « تفضل » وحملت ما بدا لي من ترده واضطرابه على حمل الخجل فألححت عليه فدخل ، ففضيت به إلى المكتبة ، وناولته سيجارة وقمت لأصنع له قهوة ، فاستغرب سلوكي معه ، وأعجبه على ما يظهر ، فأقر لي بالحقيقة وسألني الصفع ، فضحكت ، وقلت له والله إنى لحدير بأن أخجل منك ، فإن البيت فارغ ، ودرت به على الغرف ليرى بعينه مبلغ فراغها فزاد خجله ، وطال اعتذاره وعظم أسفه ، فخطر لي أن من نقص المروءة أن أردّه خائباً ، صفر اليدين ، ولم أجده غير الكتب ، فتناولت طائفة منها ، وقلت له خذ هذه وبعها ، وإذا احتجت إلى سواها فتعال إلى ، فقد ملأت عبادة الأصنام وكتبت له رقعة وقلت فيها انى أعطيته هذه الكتب ، حتى لا يزعمه الشرطة .

والطريف بعد ذلك أنه صار صديقي فقال لي يوماً ان هذا البيت غير مأمون لأنه « منطة » وأن الأولى أن أتخذ حارساً ، ولولا أنه مشغول بكسب رزقه لتولى الحراسة الواجبة . ولكنه سيجيء برجل أمين يقظ ، يؤدي هذا الواجب .

وبعد بضعة أيام جامنى بفقيره أعمى وقال هذا حارسك ، فلم أر أن أردّه ، فكان يبيت كل ليلة عندى على الشرفة ، وإلى جانبه نبوته . وكان خفيف النوم فكل شيء يوقظه ، وإذا استيقظ ضرب الأرض بنبوته وصاح « من القادم . . » فاستيقظ أنا أيضاً ! . . فلم أجد لى فى هذه الحراسة راحة فحولته إلى المقبرة ، وقلت له اقرأ على هذا القبر كل يوم ما تيسر من القرآن الكريم .

وانتقلت إلى بيت آخر آمن وأقل حاجة إلى هذه الحراسة .

منذ مئات من السنين ، أو الحقب فما أبعد هذا الماضي فيما أحس ، وما أقربه أيضاً - قرأت قصة هيبسيا لشالز كنجزلى ، وكان صديق العقاد هو الذى دفع بها إلى وأوصانى ، وأنا أقرأها ، أن أحضر إلى ذهنى قصة تاييس لأنا تول فرانس ففعلت ، ورأيت كما رأى ، أن من الممكن أن يقول المرء أن القصة الانجليزية هي التي أوحى إلى الأديب الفرنسى بموضوع تاييس ، وأنا أفضل القصة الانجليزية ، وإن كان أنا تول فرانس أبرع فنا وأسحر أسلوبا ، على أن هذا موضوع آخر ، وكل ما أريد أن أقوله أن في هيبسيا ، على ما أذكر ، رجلا عجيب الأطوار غريب الفلسفة ، يكون في زورق أو سفينة - فما أدري الآن - فيروح يتفلسف في ضعف دلالة الحس على وجود المحسوس ، حتى ينتهى إلى إمكان القول بأنه هو غير موجود على الرغم من إحساسه بنفسه ، وشعوره بوجوده .

وقد راقى هذا الرجل يومئذ وأعجبته فلسفته ، وإن كانت تؤول إلى لا شيء ، وبعد كل هذه السنين لا يزال منطقته يدور في نفسى ، ومع ذلك لا أستطيع أن أتذكر اسمه ، أو ماذا هو في الرواية ، وكنت في صباى - أى نعم في صباى - أحببت فتاة كانت جارة لى ، وكانت في مثل سنى ومن أجلها كففت عن اللعب في الحارة مع الغلمان ومن أجلها كنت أسقط من سطح بيتنا على سطح بيتها لأنعم بحديثها وأتملى بالنظر إلى حسن وجهها ، فقد كان أهلى يزجرونى عن لقاءها وأهلها لا يرضون عن حبنا الصبباني ، وهؤلاء وأولئك جميعاً يخشون العاقبة ولا يطمثون إلى النهاية . وكنت لا أكتم حبي لها ، بل أشعر به وأنا جلد مسرور وأحدث به غلمان الحارة ، فيستغربون ، وخادمنا فيدعو لى بطول العمر والسعادة ، والشيوخ الوقورين

من أصدقاء أخى الأكبر فيضحكون ، ويتسلون ، ويربتون على كتفى ويقولون « عال عال ما شاء الله ما شاء الله » .

وكننت أقول لأخى حين تنهرنى عن هذا الذى كان فى رأيها عبثاً « ماذا يضير أحداً أن أحبها ؟ »

فتقول « اختشى يا ولد عيب ! »

فأتعجب وأسألها « عيب ؟ أى عيب فى حبي لها ؟ لى لا أصنع شيئاً سوى أنى أحبها . »

فتقول « هذا هو العيب »

فأسألها « ألسن تحبينى ؟ »

فتبتسم وتقول « يا بنى كيف تسأل ؟ »

فأقول « لست أسأل ، فلانى أهرف أنك تحبينى ، وأنا أحبك وليس حبك لى عيباً ، ولا حبي لك ، فلماذا يكون ذلك عيباً ؟ »

فتقول « هذا شيء آخر ، أنت لى بنى ، وأنا أملك ، ولكن هذه . . . هذه ليست منا » .

فأسألها « إن أبى لم يكن منك . ولكن تحبينه ، ومازلت تلبسين السواد حداداً عليه منذ سنوات »

فتقول « ولكنك صغير لا تفهم »

فأقول « صحيح أبى صغير ، وأبى لا أفهم ، ولكنى أحس يا أمى . . . ألا يكفى أن أحس ؟ وصدقينى ولا تغضبى أو تستائى حين أقول أنه أشهى لى أن أكون جالساً إليها الآن وإن قلبى يرف صبوة إليها »

فتطرق شيئاً ثم ترفع رأسها وتضع أيدها على كتفي وتقول « وبعد ؟
ما هي النتيجة ؟ ما هو المآل ؟ »

فأقول « لست أعرف ماذا تبين ؟ كل ما أعرفه أني أحبها وأنا فرح
بذلك .

فتسأل « ولكن النتيجة ؟ ماذا بعد هذا الحب ؟ ما آخرته ؟ »

فأقول « لا شيء . . أحبها ، وهذا هو الأول والآخر . . ثم لماذا
يكون له آخر ؟ »

فتقول « انك طبل .. وهذا غير محقول »

وكان حب هذه الفتاة ينمو على الأيام . كما ينمو شعر رأسي . وقد تحولنا
إلى بيت آخر وبعدت الشتات جداً ولم يكن هذا يعني أن أقطع المدينة من
أولها إلى آخرها سيراً على القدمين كل يوم لأزورها . وثابرت على حبها
أعواماً طويلاً ثم زوجوها في الأرياف فغابت عني ، فغاب الخير والأنس ،
وغاض السرور من نفسي ، وأظلم القلب .

كان هذا وأنا صبي في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد مضى ثلث
قرن وزيادة على هذا الحب الأول ، وزحنت المدينة ، وهدمت الحى الذى
كان فيه بيتها . هدمته كله ، ورفعت بمائتي جديدة ، وشقت طرقاً ، ووسعت
مياذينى ، وغرست أشجاراً ؛ وهدمت نضيباناً ، وأجرت تراما . ولإذ بي في
يوم من الأيام أزور هذا الحى وأجوبه شبراً شبراً ، وأتمثل ماضيه كيف
كان ، حتى اهتدى إلى الرقعة التى كان يبتها قائماً عليها فأرجع مغتبطاً قرير
العين ، وأزداد اعتزازاً بذكرى ذلك الحب .

ولم تهت ولن تهت صورة الفتاة ، وإني لأراها الآن ، كما كنت
أراها في ذلك العصر الحالى ، واقفة إلى جانبي وأمامنا على النافذة طبق فيه
« لب » تقشره لى ، وتعطينه ، لأننى لا أحسن قشره ، أو جالسة على

حشية تسرح شعرها الدجرجى ، وترجله وتضفره ، فأميل على رأسها ،
وأدنى أنفى من شعرها الرخيف ، وأشمه . وإني ليخيل إلى أنى أجد طيبه
الآن أنفى ! وما أقول « ينزل إلى » إلا ابتداء لإنكار القارئ فإن شعورى
بذلك أصداق ما يمكن أن يكون ثمر للإنسان بشيء . وما زلت أراها ،
تجربى فى الحارة وراء دجاجة لما شاردة ، وأنا أدعوها أن تترث وتقف
هناك ، وتخطو مرفقة ، على حين أقف أنا فى ناحية أخرى لنصير الدجاجة
بيننا ، ونزحف ونضيق على الدجاجة المارقة ، وهى تصيح وتضرب
بجناحيها ، وتحاول الإفلات ، فتعنى الفتاة عليها بنته لتمسكها ، فتأخذ
عنى ثديها الناهدين الراسخين وقد ثنلا بالثوب وأحس هزتها تحتها ؛
فيدور رأسى وأذهل عن الدجاجة ولا أعرد أدري أفلتت أم وقعت ،
فتصيح بى وقد اعتدلت « مالك وقفت وسكت ؟ ألا تساعدنى ؟ » فأفبق
وكأنى عدت من عالم آخر ، ولا نزال بالمجاجة حتى نمسكها .

وصورتها وهى على السطح تنشر الثياب المغسولة على الحبال الممدودة
وتثبها بالمشابك ، وقد كشفت عن ساعديها وطورت الكمين فوق المرفق ،
فبدت البشرة السمراء مضطربة من أثر الغسل ، وجهده الدعك وفعل
الصابون .

وصورتها وهى واقفة ببناء البيت تودعنى ، وباب السكة موارب ،
وقد ضمتها إلى صدرى وطوقها بأدراعى ، وعكفت على فخها بالقبل
الحرار ، وكان وجهها إلى الباب ، وظهري إليه ، فررجل من أصدقاء
أخى ، نعرفه ثرثرة تماما ، وتراه فتحاول أن تفلت من عناقى ، وأحسها
ضجرت ، وأتوهمها فترت ، فأكتب ، فتصيح « لا لا . هذا الرجل »
وتقص على الخبر وتعيد لى بشاشتى وترد إلى روحى الإشراق .

وصورتها وهى راقدة ورأسها على وركى ، ويدى على شعرها أمسحه

وأنخلله بأصابعي ، وأمس خدها الأسيل ، وأداعب شفها الرقيقة بأصبعي ،
فتغافلني وتعضة .

كلا ، لن تهت هذه الصور لبدا ، ولن تكبر الفتاة أو ترتفع بها
السن ، أو يزداد عمرها عندي يوما ، وستظل على الأيام غضة صغيرة .
ولكني نسيت اسمها ، فكأنني ما عرفته قط ولا سمعت به .

تري ماذا كان ؟ وكيف كان في السمع ؟ وفي وسعي أن أسميها شيئا
وأن أطلق عليها أعذب ما أعرف من الأسماء ، ولكنها عندي أحلى هكذا
بلا اسم ، ولا عنوان . وماذا يزيد لها أن يكون لها اسم وماذا أضنع به
وليس ينقص الصورة شيء ؟

نسيت اسمها كما نسيت اسم ذلك الرجل المتفلسف في قصة هيبسيا .

بعد أن كتبت الفصل السابق شق على أنى نسيت لماذا سقت قصة هذه الفتاة التى أحببتها وأنا صبي ، ولا يزال لحبها - أو لذكراه - نوبة فى الفؤاد ، وعلوق بالنفس ، وقضيت أياما أحاول أن أذكر . ستي وأنا أعمل أو أتكلم ، أرى نواطرى تنثنى إلى هذا الذى تنلت منى وغاب عني ، وكان يخيـل إلى أحيانا أن السجف المسيل ينمحي قليلا ، قليلا ، أو ما يشبه السحاب المعقود يرق ويشف ، وأن نجما يوشك ومنه اللفاق أن يطالعني ، فأبتسم ، وأطعم ، وأتشرف ، ولكن ما كاد يرق يعود فيتكاثف ويتراسب ، فارتد بالحيرة والأسف ، وأتغزى بقولي من يدري ؟ إن للذاكرة معابثاتها ، وقد يتفق لي يوماً بعد أن أكف عن تعنية النفس بما نسيته ، أن أكون في مجلس شراب أو في السينما ، أو أكون ناهضاً من رقاد ، فيحضر الغائب ويظهر المحجوب أو المتوارى ، ويطفو الراسب ، ومن يدري أيضاً ؟ لعل حينئذ أتذكر اسم الفتاة !

ولكن أيمكن أن أكون على يقين أن هذا اسمها ؟ هل يسعني أن أطمئن إلى أن هذا الاسم هو الذى كنت أعرفها به ؟ كلا ، فما إلى هذه الثقة أو الاطمئنان من سبيل ، وعجيب أن أنساه .

وأعجب منه أن ما يدور في نفسي من الأسماء لا أجد له في جوانبي صدى ولا أحس منه هزة أو عسى أن تكون هي قد نسي اسمي ، بل نسيني جملة ، فما كنا إلا طفلين نلعت بما لا نفهم ، وما أحسبها غالت بحبها لي وضننت به على العفاء كما غاليت وضننت ، وأكبر الظن أن شتون

الحياة وشجعونها وأفراحها وأتراحها أذهلتها عن ذلك العهد على ما كان فيه من حلاوة ، وله من سحر ، وأنه ليس لغيره لي أستاذاً ، وأنا أرى بنى أن هؤلاء كان يمكن أن يكونوا بنى منها ، ولو رأيت أبنائها — أترى صار لها بنون ؟ — لما وسعني أن أتصور أنهم بنو عادي ، أو على الأقل أن خاطري المائل في نفسها لم يطعمهم بشيء مني ، ولكن أنى لي أن أعرف — بل أكون واثقاً — أن خاطري يتمثل ، أو كان يتمثل ، لها ؟ ويشق على أن أتصور أنها تنسى . ولعل حبها لم يكن كفاء حبي ، ولكن أحسبها تنسى كل شيء إلا أني فزعت إليها واختفيت عندها وفي بيتها ، وفي حجرة مظلمة رطبة مزجورة منه ، يومين كاملين .

وكان أخي الأكبر — رحمه الله فإن به حاجة إلى الرحمة — قد أراد أن يبرني ويسرني فدعاني إلى مرافقته في يوم « شم النسيم » فذهب بي ، ومعنا من أصدقائه ذلك الشركسي الثرثار الذي أشرت إليه في الفصل السابق — والذي رآني أعانق فتاتي فذهب يقص الخبر على كل من يلقاه ويقفه فسمعت به أمي واغتمت له جداً — إلى روض الفرج ، وكانت هناك سفن راسية .

وقد صفت عليها الكراسي والبلالات على هيئة المظاهي ، فجعل أخي وصاحبه يشربان « بيرة ستوت » وجاءت امرأة سمينية ، ولكنها جميلة فسلمت وجلست ، واديرب عليها الراح التي تدار عليهما ، ونظرت المرأة السمينية إلى بعينها المكحولتين وسألت « ألا تشرب ؟ » فتبسست ولم أرد ، فقال أخي وكان من أظرف الناس إذا شرب — « خذ... إن هذا لا يضر » فhezزت رأسي أن لا ، قال على وهمس في أذني « لا تخف لشرب وأنت آمن » فhezزت رأسي مرة أخرى ، فعاد يهمس في أذني « اشرب بالله ، وسأقول لخالتى » يعني أمي ولم تكن خالته ولا أمه « أني اسقيتك سوبية » وهي شراب يصنع من الأرز فقبلت وأقبلت على الكوب الكبير اكرع منه كما يكرعون ، وكان هذا أول عهدي بالشراب ، فدار رأسي قليلا ،

وأحسست بالدم يصعد إلى ما وراء عيني ويتجمع هناك وانطلق لساني وراح هذا الشركسي الثرثار يغمز أخى فيسألني هذا عن فتاتي ، فأقول بحجي فيضحكون ويقرهون ، وتكون المرأة السمينه الجميلة أعلامهم ضحكا وأشدهم قرقة «هوت» ، وكانت صورة هذا المجلس ماثلة لخاطري ، لما نظمت بعد سنوات طويلات المدد - قديمة مبالغها .

حشا شراهما في نلل حسان رياه ريثماننا في مجلس الحان
ريا الحبيب . ولا شيء كنفحته وهنا يهيج أدلرابي وأشجاني
حشا شراهما حتي رأيتها لا يسمان ، وإن كانا يقولان
هما أثيران علاني على ظناً وبالشراب على سرى يغوصان

ولم أكن أعني هذه السمينه الجميلة ، ولكن صورة مجلس الشراب الأول ألت ، على ، فضى القلم يرسمها في التي يطربني منها ما نثيره من الذكرى .

ولا أحتاج أن أقول أنى سكرت ، وقد دخلت على أمى ، وشتت من فمى رائحة الليل ، ففضيت غفياً شديداً «دعت جدتي «لأبى» وقالت انظري ما صنع خيرى بأخيه ؟ فنادت جدتي أنخى ، فأقبل عليها يتسم لها ، فتباحث به « يا قليل الحيا يامزبلع .. نخذ » ونخلت القبقاب ، وأهوت به على أنخى وهو يهضح فيلادننيا ويعتذر ويسألها الصفح ، ويحاول أن يطمئنها على ، وكنت أنا قد تسالت إلى غرفتي ، وارتيمت على السرير ، ولم أكد أفعل حتى ألتيت ما في جرفى على البساط ، فخجلت .

ولم أعد أطبق أن أنظر إلى وجه أمى أو جدتي ، فصبعدت إلى السطح وانحدرت منه - على السلم المعهود - إلى سطح الفتاة ونزلت إلى الفناء ، وأهبت بها أن تؤويني ، وتخفني عن العيون - حتى عيون أمها وأختها - فبحارت كيف أصنع ، ورأيت أنا باب الحجرة المهجورة فدفعته ودخلت

وقلت هنا أختيبيء ، ولم يكن في الحجرة شيء يصلح للجلوس أو الرقاد ، فسرقت الفتاة كرسيها فعدت عليه حتى تندبر الأمر ، ثم جاءني بحصير ومغدة فارتميت ونمت ساعات ، ولما أفقت كانت قد هيات لي طعاماً — بيضاً مسلوقاً وقطعة من الجبن وبضع زيتونات وخبزاً — فأكلت هنيئاً وشربت ماء كثيراً .

في هذه الحجرة قضيت ليلتين ، وكنت فيها كأني في سجن ، فما كنت أبرحها إلا دقائق حين آمن العيون ، وكانت الفتاة توتسني بوجودها ، وتجيئني بأخبار البحث عني ، وقد ضحكنا سبلاً لما روت لي أنهم أطلقوا منادياً يسمح في الشوارع « ياإلى شاف ولد تايه عمره اتناشر سنة لابس جلاية بيضة وراسه عريانة اسمه ابراهيم ... الخ الخ »

وكان ضحكنا لأنني لست طفلاً حتى يظنوا أني تهت وضللت الطريق وكان قلبي يعصره الألم كلما تصورت جزع أبي وسجدتي ، وبكاءهما ، وقد هممت مراراً أن أبعث إليهما بنجر مطمئن ، ولكن الوقت كان يَمْضِي ولا أفعل ، وكان التردد في هذا والخيرة شر ما أعاني ، ولكنني كنت راضياً مغتبطاً بقرب الفتاة وحسن رعايتها لي ، وصدق سريرتها في كتمان سري ، حتى عن أمها وأختها . ولم أكن أبالي الرطوبة أو الظلام فقد كان الوقت صيفاً ، والظلام جنة ، وألفت عيناى النظر فيه فكان حسبي أن أرى محبا الفتاة .

ولكن الحب ، بالغاً ما بلغ من القوة والعمق ، لا يمنع أن يضيق المرء صدره بهذا الحب ، وأن تلح الرغبة في الخروج من مثل هذا الحبس على ما كان فيه من الأنس ، ولم تنكر الفتاة مني ما كان يبدو من تمللي وضجري واشتغالي الخروج إلى النور ، بل تطوعت فكانت رسولي إلى أمي تطلب لي منها الصفح ، فما كان من أمي إلا أن اثتررت وخفت إلى ، وضمتني إلى أحلى صدر وأرق قلب كأنما كنت قد غرقت أو خطفت . . !

كلا ، قد تنسى الفتاة كل شيء إلا هذه الحادثة ولكن أين هي ؟ فوق
الثرى أم تحته يا ترى ؟ قد تكون ماتت ! أو تكون الآن عجوزاً شمطاء !
فهل أنا أحب اليوم أن أراها ، وأن أعرف كيف صارت من بعدى ؟؟ لا !

ولانى لأذكر أنى كنت يوماً أتمشى مع صديقى الأستاذ العقاد ، فرأيت
رجلاً قصيراً مرسل اللحية أبيضها ، مقوس الظهر ، مغضن الوجه ، فقلت
لصديقى « أنظر . . هذا هو المازنى فى السبعين من العمر ! تالله ما أقبح
ما نحن صائرون إليه من الضعف والتهلم والدمامة ! لا ياسيدى ، خير من
هذا المصير عمر قصير مع الهمة والقدرة .

نعم ، أكره أن أرى الفتاة فى حاضرها ، وأن أفسد على نفسى صورة
صباها النضير ، وشبابها الريان ، وهما ماتت ، فما ماتت عندى ، وإنى
ليموت منى كل شيء ، ولكنها هى عندى ومعى حية لا تموت ولا تهرم
مابقيت .

أراني منذ بضع سنوات أزداد كل يوم انقباضاً عن الناس ، وفوراً
عن لقائهم ، ومخالطتهم ، ونفوراً من الاتصال بهم ، وكنت قبل ذلك
أحس الضيقة إذا لم أجد من أجالس وأحدث ، وكان يسرني أن أسمع
صوتي - لا شادياً بل متحدثاً - وكانت لذة الحديث لاتعادلها عندي
لذة ، وكنت في سبيل هذه المتعة البريئة أصنع كل ما يراني الأخوان ذا
ولوع به أو طلب له ، من برىء وكانت الوحدة تلتف أعصابي ،
وتعصف باتزاني ، وتكلفني شططا ، ثم ألفتني - من حيث أشعر ،
ولا أشعر ، أضيق الدائرة ، أو أوسع لنفسى المخرج من محيطها ،
وأتسلل شيئاً فشيئاً ، حتى أصبحت أتلفت فلا أجد حولي أحداً ،
وصرت إذا احتجت إلى لقاء صديق قديم ، أتردد ، وبى من التيب والحجل
مثل ما يحس المرء عادة عند لقاء غريب لا عهد له به .

وقلت لنفسى مرة « يا هذا ، إنك لتمشي في شارع غاص بالخلق
مائج بالرائحين والغادين والرائحات والغاديات ، وتروح وتجيء مثلهم أو مثلهن
ساعة أو بعض ساعة ، وتقطع خمسة فراسخ في الذهاب والإياب فلا يتفق
أن تلقى وجهها تعرفه . نصف المدينة القارئة تخرج إلى هذا الشارع وتسير
فيه . وكل من ترى معه صاحب أو صاحبة ، ولا تزال يده ترتفع بالسلام
أو رأسه يهتز بالتحية لهذا وذاك ، إلا أنت فما يمر بك من تعرفه
أو يعرفك ، ومع ذلك أنت أشهر من يمشى في هذا الشارع ، ولعل
كثيرين ممن تأخذهم عينك قد قرأوا لك ، وأعجبوا بك أو سخطوا عليك
فهم يعرفونك إذا كانوا يعرفونك - ورفات مغلقة أو مجلدة

ولا يعرفونك في الأحياء من أمثالهم ، ومن يدري ، لعلهم يستغربون ، بل يستنكرون أن يروك في الطريق ! فكثيراً ما نحصل في نفوس القراء صور للكتاب ليس أغرب منها ولا أعجب . وقد خابت لي أنا آمال كثيرة في أدباء عرفتهم قبل أن أراهم ، لأنني وجدتهم على خلاف ما كنت أتخيلهم مما أقرأ لهم . والصورة التي يرسمها المرء للمجهول تكون على هواه ، وقلما يكون الأصل على حقيقته كذلك . والنفوس بعد أن تفرغ من رسم الصورة وتلويحها وانطاقها بالتعابير المستوحاة من الآثار المنشورة يعز عليها أن تتناولها بالتنقيح والتبديل بل بالتغيير التام في أحياء كثيرة وهذه الصورة المتخيلة تكون من جهد النفس ، والنفوس لا يطيب لها أن يذهب جهدها عبثاً ، وأثقل من ذلك على المرء أن يعترف بأن فراسته لم تكن صادقة ، وأن التوفيق أخطأه فيما تعب فيه ، وباهي فيما بينه وبين نفسه به . وما أكثر ما سمعت من الناس في أول لقاء « غريب » ! لقد كنا نتخيل المازني شيئاً جميلاً له طول وعرض « أو قولهم » لقد كنا نتصور أنك نكور على رأسك عمامة عظيمة وترسل لحية كثة « أو قولهم » أنت المازني أم اختراله ؟ « ومتى كان هذا هكذا أفلا يكون الأمثل أن أبقى في اذهان الناس كما يشاءون ان يتخيلوني ، وان اظل عندهم كتاباً يقرأونه ويرضون عنه فيما أرجو - أو لا يرضون فقد استوى هذا وذاك عندي - ؟؟؟ »

وقلت لنفسى أيضاً « إنك لم تعيش إلى الآن » كما نحب وتوثر أن تعيش ، ولا سبيل إلى حياة تشبهها مادامت تخوض العباب مع الخائضين وتضرب في اللجة مع الضاربين ، لأنه لا يسعك إلا أن تنزل في الأغلب على حكم الجماعة ، ولكل جماعة قواعد حياتها ، والأمر في جد الحياة مثله في لعبها ولهوها . وكما أن للعب أصوله ونظامه ، كذلك للجد ، ولا مفر من التزام هذه الأصول إلى حد كبير والنزول على حكمها ، وإن كان كل خاضع لها يتسخطها ولا يرتاح إليها ، إذ القيد قيد على كل حال

فإذا أردت أن تحيا حياتك على النحو الذى هو آثر عندك فلا مهرب من التعزل ليتسنى لك أن تكون على هواك .

وقلت لنفسى أيضاً ، على سبيل التشجيع « واعلم أنك لا تخسر شيئاً تتحسر عليه ، وتألم فقدانه إذا أنت انصرفت عن الناس وزهدت في مخالطتهم ، فسيكون عندك خير عوض عما يفوتك ، ذلك أنك تكون كالذى يشرب عصارة ولا يمض ، فهى من الحسارة تعفى نفسك أن تعب التقشير والمض ، ومنظر النفاية التى لم يبق فيها خير ، وأن تقنع بالعصارة التى هى الخير كله ؟ ؟ »

وصحيح أن بذل الجهد لذة ، وأن ما يتعب فيه الإنسان يكون أحلى وأمتع مما يجيء بلا عناء ، ولكنى لن أحرم لذة الجهد ، حين استغنى بالكتب عن الناس . وقد صرت أكل ما يريح وينفع ، لا ما هو أشهى وأمتع ، وأشرب ما يفيدنى لا ما هو أعذب فى فمى أو ما أنا إليه أميل وأنى لأرد نفسى عن كثير مما يتحلب عليه الريق ، لأن طاعة النفس فيه يجيء فى أعقابها مالا يطاق من الآلام والأوجاع . وهذا كله رياضة على الحرمان وعلى أن الحرمان لا يكون إلا من الطلب ، ولا أعرف لى الآن مطلباً عند الناس ، فقد بعد ما بينى وبينهم جداً ، وإنى لأرانى مع الواحد منهم فأحس أنه فى كوكب آخر وعالم غير عالمى . ليس همى همهم ، ولا أنا منهم ولا هم منى فى قليل أو كثير ، ومنى ذهب الشعور بالمشاركة فإذا يبقى ؟؟ ولست أعنى أنى خير منهم أو أفضل ، ولكنى أعنى أنى أرانى مختلفاً ، والاختلاف ليس مزية ، ولا أفضل فيه ولا رجحان .

وقلت لنفسى أيضاً « لقد ثار بى صديق مرة لأنى سألته ألا تشبى أن تتمرغ كالحمار على الأرض ؟؟ وحسب أنى أقول إنه حمار ، وأنه لا ينقصه إلا أن يتمرغ وأعترف أنى أسأت العبارة عما أريد ولكنى إنما عنيت أن النفس تنزع إلى الحرية ، وما دام لا ضير فيها على أحد فإذا

يمنع منها؟؟ ولماذا نحيا! أنفسنا بأسلاك شائكة لاضرورة لها ولا منفعة منها ؟ .
وهي تمرغت على التراب ، وتقلبت على الأرض ، كما يفعل الحمار ،
فأين البأس هنا ؟؟ إذا كان ثم بأس فهو على لا على أحد غيري ، وثيابي
هي التي ستسخ ، ووجهي هو الذي سيتعقر ، وإذا كانت نفسي تنازعني
أن أفعل ذلك ، فإني أنا الذي يؤذيه الإحجام عنه ، وأنا الذي تتراح
أعضابه وتسكن نفسه إذا فعل . ولكن صاحبي غضب ، وإن كنت لم
أقصر في الشرح والبيان ، وفي الاعتذار من سوء العبارة وقيح الاختيار
للمثل . ولا يزال يذكرني بالسوء كلما عرض ذكرى في مجلسه ، ولا ينفك
يقول إني وقح قليل الأدب ، ولا شك أني كما يقول مادام الأدب هو
ما يعرف . وقد يسره ويخفف من سخطه على أن يعرف — إذ أمكن أن
يحمل نفسه على قاءة شيء لي — أني أخرج في بعض الأحيان ، إلى
الصحراء وأتمرغ كالحمار على رمالها ، وأعوى كالكلب وأموء كالقط ،
وأصرخ وأصيح في هذا الفضاء الشاسع ، ثم انهض وانفض عن ثيابي
الغبار ، وأنسح وجهي ويدي . وأعود إنسانا محتشما ذا سميت ووقار ،
ولكن بعد أن أكون قد أرضيت نفسي وأشعرتها أني حرولي في هذا
الذي لا قيمة له عند الأكثرين ، وأن في وسعي أن أفعل ماأشاء ، وأكون
على ما أحب . ولا نكران أن هذا لا يتاح لي إلا وأنا منفرد وحدي ،
ولكنه ليس بالقليل أن تستطيع أن تكون مستفرداً وحده وأن تنعم
بذلك ، ولا تستوحش نفسك ولا تصبو إلى الناس .

ولعل المتعة مستفادة من القدرة على مغالبة الصبوة إلى المجتمع لا مما
عسى أن تفعل وأنت وحده . ولكن كثيرين يكونون وحدهم ، ولا عين
عليهم ، ولا خوف من أن يراهم أو يسمعهم أحد ومع ذلك لا يجرعون
أن يفعلوا ما تحذتهم به نفوسهم .

وقلت لنفسى أيضاً « لا أدري لم هذا الموت ؟ وإنى لأشتى أن أرى حياة من لا يموتون ، وبودى لو يمتد في الأجل إلى زمان يسع الإنسان فيه أن يغالب هذا الردى العادى . وأحسب أن الموت هو مصدر مانعه فضائل في الإنسان ، وقد شرحت هذا فيما كتبت عن المتنبي في « تصاد المشيم » فلا أعود إليه ، ولكنى أحسبه أيضاً علة ما ألفنا أن نسميه الرذائل . غير أنه ما الخير والشر ؟ وما الفضيلة والرذيلة ؟ أخشى ألا يكون هذا وما إليه أكثر من ضوابط للسلوك ، ووسيلة لتنظيم الجماعة والانتفاع بما في الطباع . وإنا لفى زمن يعد فيه الخير في مكان شراً في مكان غيره ، والفضيلة هنا مرذولة هناك . ولقد أدركت عهداً كان ذكر الحب فيه عيباً ؛ وكان تقبل الفتى لأمه التي نجلته ، قلة حياء ، فالآن نعلم أولادنا أن الرجل والمرأة ما لم يتحابا لا يجوز أن يتعايشا ، ونطلب لغير الشرعى من الأبناء مثل ما لصنوه الشرعى من الحق والكرامة ، ونرى الخطيبين أو الزوجين ، أو الصاحب والصاحبة يتلأتمان على قارعة الطريق وفي المجلس الحافل ، ونحس الرضى والاعتباط من الناظرين ، ونشعر أنهم يدعون لهما ، ولا نحس أنهم يستهجنون أو ينفرون وليكن هذا كيفما شاء الله أن يكون ، فأين العزاء فيه لى لا يلبث أن يصبح « هالكا وابن هالك ، وذا نسب في الهالكين عريق » ؟

وطال تفكيرى في هذا الموت ، ونخامرنى خاطره ، فهو لا يفارقنى في لحظة أو مقام ، وإنى لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ما ترمى لى من الصور والحوادث في رقادى ، وما غمضت عيني ليلة إلا

وأكبر ظني أن أفقد نفسي فلا أعود إلى الشعور بها ، وقد أحب أن أهون على نفسي الأمر فأتساءل متغايياً أو مغالطاً « أتربى كل ما في الموت من هذا النقدان للشعور بالذات ؟ » ولا يفتني هذا فأرتد أقول « وكيف يبد حياة من لا يعرف أنه حي ولا يخس بنفسه ؟ وماذا تكون إذن جدرى استمرار حياة لا يخسها الحي ولا يفتن إليها ولا يدرك بها أنه موجود » أطبق الجفن على الجفن وأنا أحدث نفسي أن مالا حيلة لي فيه لا حيلة لي فيه ، فلا أنصر عن تدبره ، ولكن على وائيا هو ادخار التوبة والدفاع بها إلى آخر رفق . ولكن قاي يظل يخفق ويدق ، ويكبر في وهمي أنني إذا نمت قد تخناس منى الحياة وأنا ذاهل غافل لا أقدم دفاعا ولا أقوم بكفاح ، وأحس دقات قلبي في رأسى قوية تكاد تفلق العنق ، وأسمعها بأذنى مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب وأشعر كأن كياني كله يرتج ، بل يزلزل ، فاحتمل لاستعادة السكون ، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد فإن القعود ، فيما سبرت ، يعفني من حدة الشعور بدقات القلب ، وأروح أقول لنفسي . يا هذا إن الدقات منظممة وإن كنت أسمعها عالية ، وكل إنسان يستطيع أن يسمعها ويستعملها كما تفعل إذا هو جعل باله إليها ، فتبليك بخير ولا خوف عليه على الأرجح من سكتة مفاجئة ، يحمد من جرائها تيار الحياة ، وقد قال لي طبيب استشرته أن القلب سليم وأن جسمك الضئيل لا يكلفه جهداً وأن أيسر عمله كاف جداً لإدارة الدم في البدن كله وهذه أعصابك قد أتلفتها بهذا التفكير الدائم في الموت . فهل تستطيع أن تبين لي على أى شئ منحصر في الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع ؟ وأشغل نفسي بجواب هذا السؤال ، وأروح أعرض على نفسي وجوه حياتي ، ولا أبخس الحسن حقه ولا أغالي بالقبيح أو أهول به ، ويطول بي ذلك فيأخذني النوم وأستريح من هذا العناء الباطل .

ولكن الخاطر يظل حاضراً أبداً ، على الرغم مما أحاول أن أدافعه به ، فأنا أقعد للتلعام وأحس من نفسي الإقبال عليه والرغبة فيه ، ولكن

كل لقمة أتناولها يصبحها إنذار « حاذر من الكظة » فانهض عن المائلة
وما شبت وتقول زوجتى وهى تقوم معى « لا أراك تأكل الكفاية » فأقول
متمثلا « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ؛ وإذا أكلنا لا نشبع » وأنقى أن
أعديها بما ينغص عيشى .

وأكون كما يقول الشاعر القديم :

ولما نزلنا منزلا طله الندى
أنيقا ، وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه
منى ، فتمنينا فكنت الأمانيا

ولكنى أنظر إلى هذه التى هى منى النفس ، وروح الحياة وربحائها
فأرى بأول الظن « آخر الأمر من وراء المغيب » فتبدو لى ملفوفاً عليها
كفن وقد شاعت الصفرة فى محياها المتوهج ، وأضت عينها التى تنث
السحر كقطعمن زجاج ، وشاع فيها البلى علوا وسنلا ، وصارت غصارتها
ونضارتها صديداً سائلا تسد من تنه الأنوف .

وأرد نفسى إلى عيني وأترقى بها وأنا أتصور مآلها ، فأراها شجرة
يلوى نورها ، وتذهب زهرتها ويحف ورقها ويسقط عنها ، فتعري ، ثم
يجىء الخطاب ويهوى على أصلها بالفأس . . . وكانت هنا شجرة ثم
خابت . . . هذا كل شئ .

ويحضرنى بيت للخيام مما ترجمته عنه :

وأين ، لا أين ، بلبل غرد

كان يغنى على الفصون لنا ؟

فأديره فى نفسى وأدهوره فى شدى ، بلا صرت ، وأظل مع ذلك
اتبسم للجالسين وأحادثهم وأمازهم وأجد معهم وهم لا يدرون أنى قبر
مظلم ، وأنى أستر نفسى وأحجبها عنهم بأزاهر الضحك المتكلف ، أى نعم

لها أعرفني ضحككت ضحكة من القلب .. ضحكة سرور حقيقي عميق ..
ولكن ما لم هم أقول لهم ذلك ، وأغش به نفوسهم وأفسد نعيمهم وأسود
الدنيا في عيونهم ؟ ؟

ويلقاني الشبان ، ويسألونني ، ويرهفون السمع لما أقول ، وفي ظنهم
أني أحكم منهم وأعلم . وإني لكذلك ولكنها حكمة خير منها الطيش وعلم
أفضل منه الجهل ، فأقول لنفسي . يا هذا . إنك مسخ كريبه ، وإن كان
هؤلاء الشبان لا يعلمون ، فلا تنزع القناع ، ولا تكشف لهم عن الخراب
والقبح الذين في نفسك ، ولا ندع عيونهم تأخذ الديدان التي تمرح في جوفك
وترفق بهم فإن حسبهم ما لا بد أن تصدمهم به الحياة عاجلاً أو آجلاً بل
آجلاً كما أرجو لهم وأحب وإني لأتمنى لهم السلامة والنجاة ، ودوام الاغترار
بالعيش . وإن قلبي ليعصره عاصر حين أنجيلهم وقد فتحو عيونهم على
حقائق أخرى غير التي يعرفونها أو يأملونها ، وأروح أرسم لهم صورة
للحياة الزاهية واضح نفسي في موضعهم وأتكلم بمثل لسانهم ويكلفني هذا
شططاً ، فليس أقسى من ثني الأعصاب وأكراهها على بحالة غير حالتها
ويخيل لي وأنا أبذل لهذا الجهد من نفسي أني أوقدت ناراً تحت أعصابي
لتحمي ، وأنني أدقها بمطرقة لتلين وتتخذ الصورة التي أريدها ويوسفني
أنني لا أجعل ما أمرهم به . بعد ذلك لتخمد الجذوة وتبرد ، ويذهب
عنها الحر .

وأسال نفسي : أترأى أنني تستأنف حياتك وتبدأها من البداية
كرة أخرى ؟ ولا أكذب نفسي فأقول (لا) وأحس أني في حيرة ،
فلا أستطيع أن أقول (نعم) وما خير التكرار إذا كانت النهاية واحدة ؟
وإذا تسنت العودة من جديد واستئناف الحياة في الدنيا مرة ثانية ، فهل
يكون ذلك بهذه النفس التي ألفتها ؟ وأرى الجواب كلا على التحقيق ،
فأزهو في فراق النفس ، ولا أرى هذا الاستئناف للحياة ، أو ابتداءها
من جديد ، إلا ضرباً من الموت ، فكأنني ساموت ميتين بدلاً من واحدة .

وأحياناً هذا الخاطر بالتهكم والسخرية . أركب بهما نفسى
والناس والحياة وكل ما فيها ، وتستزقي الناطقة الفنية فترة ، فأذهل ،
وأهناً ، لأن بالى خلا من التنغيص ، ولأن عاطفتى الننية جعلتني فيما أحس
أقوى من الحياة نفسها ؛ لأنها انتزعتني من اللبنة ، ووقفت بي على
الشاطئ وأتاحت لي أن أتأمل صورة الحياة من ناحيتها المسلية ، وأنا
معزل عنها فكأنني محلق فوقها ، غير خاضع لها . . ومن يدرى ؟ لعلني
أدخل السرور على نفس أخرى مظللة كنفسى ، بما أعالج من فكاهة
الحياة ؟ . ولبس قليلاً أن أستطيع ذلك وإنه ليسعدني أن أؤتمهم أنى أستطعت
إسعاد غيرى ولو دقائق معدودات وقد أكون وإهما ولكنه وهم - جميل ، بل
جليل ، وأنه الذى يغريني بتلمس الجوانب الفكاهية فى الحياة ، ولا أنكر
أن هذا يسرى على نفسى أيضاً ، ولكن ما ينفعني ويشغيني ساعة لا يخلو
من نفع لغيرى . وما أظن بي إلا أنى أصيبت ، كذلك الذى شغاه دواء
لا يعرفه الأطباء ؛ فهو يعد منه ملء زجاجات يهبها للشاكرين المتوجعين لوجه
الله وشكر الله .

وقلت لنفسي أيضاً : « يا هذا ، لقد جاوزت الخمسين ، فأنت الآن
فى المنحدر ، كنت على جانب آخر من جهل الحياة ، تصعد وتتوقل ،
ويصرفك ما فى الصعود من مشقات وما يتماضاك من جهد ، وما تأخذ
عينك من صور ومناظر - عن التفكير فى الذروة وما بعدها ، فالآن
أشرفت على الجانب الآخر ، ولا مفر لك من النزول . وعبث باطل ليس
يجدى أن تخادع نفسك ، وتوهمها خلاف ذلك . وقد يتيسر لك أن تقف
هنا قليلاً ، وتتلبث هناك لحظة ، ولكن الانحدار مهما طال الوقوف ،
لا مهرب منه ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق ، فهى
أبدأ - أو فى الأغلب الأعم - إلى تحت . . إلى المصير المحتوم . . وهو
محتوم . . محتوم ، ما فى هذا أدنى شك فما قولك فى رياضة النفس
عليه ؟؟ تروض نفسك على الموت . . على الاطمئنان إليه . . على

السكون إلى ما يهولك منه ، والرضى به ؟؟ واعلم أن هذا لا ينبغي حرصك على الحياة وضئك بها ، وكل ما فيه أنه يعدك لما بعدها ، فأنت كالذي يذهب إلى مدرسة ليبيء نفسه لغده المأمول ، فهلنا غدك الذي لا ريب فيه ، فن أصالة الرأي أن تنهياً له . وسينفعك هذا ، ومواجهة الحقائق أولى وأرد على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها . . ،

وراقني هذا ، فصيح عزمي على رياضة النفس على السكون إلى الموت .

سألت نفسي : « لو أمكن أن أبدأ حياتي من البداية ، مرة أخرى ، فهل تراني أسير فيها كما سرت ؟ »

وخطر لي ، وأنا أدبر هذا السؤال في نفسي أن الأولى أن أسأل : هل يسرنى أو أنا أشتهى ، أو أتمنى أن يرتد عقربا الساعة ، وأن أكر راجعاً إلى تلك البداية ؟

ولا أدعى أنني كرهت هذا ، ونفرت منه ، ولكنى أقول . إنى ترددت وصحيح أنها كرة - لو أتيت - يكبر بها الأمل في طول البقاء في هذه الدنيا ، والتلبث على الأرض ، ولكن المعول في الحياة ليس على الطول والعبرة ليست بالمدة ، وعدد السنين ، بل بالامتلاء والسعة ، ولولا شهادة الميلاد لما صدقت أنى تجاوزت الخمسين ، فإنى - كما قلت قديماً أيام كنت مغرى بالنظم -

أحس كأن الدهر عمرى ، وأننى أخو مغرق الأرضين بالفيضان
ويضحكنى الآن أنى قلت هذا ، فإ أعرف أخى المزعوم هذا من عسى أن يكون ؟ وقد كنت أعنى نوحاً ، ولكن نوحاً لم يغرق أرضاً ، ولم يفجر ماء ، وكل ما كان منه أنه صنع فلكا حمل فيه من كل شيء زوجين حتى أقلعت السماء ، وبلعت الأرض ماءها ، فليته ما فعل ؟ وهذا البيت مثال للتأليف السخيف الذى لا دقة فيه ولا لإحكام . وبعد أن يقول المرء أن الدهر كله ، عمره ، لا يقبل منه هذا القياس المحدود ، بأن يكون أخا نوح أو حتى أخا آدم ، فإن مسافة هذا الزمن مهما طالت لا تملأ أن تكون جزءاً من الدهر . وقد كنت في هذا البيت شبيهاً بالعامية أو الأطفال

حين يقيسون ما لاحد له إلى ماله حلود قريبة . وللعامة عذر من أنهم محدودون ، وأن فجاج الفكر والخيال والشعور مسلوذة عليهم ، وليس كذلك الأديب الذى يزعم أنه واسع ، وأنه عالم صغير « يسع السبعة الأقاليم طراً » كما يقول ابن الرومى فى بيت يهجو به ابن بوران ، أو أمه ، ويقول بعد :

كضمير النؤاد يلثم الدنيا وتحويه دفئا حيزوم

والذى يزعم نفسه قادراً على أن يطوى العالم كله فى ضميره ، وأن فؤاده يتسع للدنيا لا يجوز له أن يكون قاصراً محدود الخيال ، ضعيف التصور كالطفل والجاهل العامى النفس

وكان بعض الإخوان قد أشار على أن أعيد طبع ديوانى بعد أن أضيف إليه مالم ينشر ، فقلت له لى لا أرضى الآن عما قلت من الشعر فى صدر حياتى — وأنه يحتاج إلى مراجعة طويلة متعبة ، ليصبح فى رأى صالحاً للنشر ، ولا صبر لى على هذا ، ولا وقت له عندى ، ومن الخطأ أن أنشر مالا أستجيد ، فقال إن رأيك فيه ليس من الضرورى أن يكون رأى الناس مثله ، وأن مالا يعجبك قد يعجب غيرك ، وأن ما يروقك قد لا يروق سواك .

فقلت هذا صحيح ، ولكنه شعرى ، ونشرى له معناه رضائى عنه وارتياحى إليه ، وغير مقبول أن أشتم الناس بأن أقول لم خذوا هذا الشعر ، فهو حسبكم وإن كان ليس حسبى ، ثم إن رأى أنا فى كلامى هو الذى يعينى ، وما قلته إلا للعبارة عما فى نفسى . .

فلذا كنت أرانى لم أجد العبارة ولم أوفق فى التصوير ، وأنى تشابه الأمر على ، للجهل ، وخلطت بين العرض والجوهر ، وركبى الغلط حتى فيما توهمته حقيقة إحساسى وخوالجى ، فكيف أستطيع أن أعرض هذا الخلط والغلط والعجز على الناس ؟ ؟

وكما لا أحب أن أنشر ما قلت من الشعر بعد أن أدركت مافيه من قصور ، كذلك لا أحب أن أبدأ حياتي - كرة أخرى - من البداية ، وأكبر الظن أن ذكرى الشباب أحلى من حقيقته ، وأعذب . وإنى لأغوص في أعماق نفسي الآن ، فأجد أني في شبابي لم أسعد به كما أسعد بذكراه ، وأنى لم أجعل بالي في عهده إلى الحلاوة التي أتذوقها الآن من عرض أيامه على خاطري ، ونشر المطوي من زمانه . وأحسب أن الذي يكسب ذكرى الشباب هذه الحلاوة ويرقق القلب له ويعطفه عليه ، ويعصره أيضاً ، هو أن الإنسان ينتقى منه وينتخب ، ويغربل وينخل ، ويبرز ما يحب ، ويحجب ما يكره ويقول هذا هو الشباب !! كلا ، ليس هذا بالشباب ، وما كانه قط ، ولن يكونه ، وإنما هو الحميد منه ، مستخلصاً ، ومصفى ، ومعروضاً على نفس تحس ديب الفناء ، وتشعر بأنها مولية عن الدنيا ، وكل ما يذهب ولا يرجع يلتفت إليه القلب ، وما ينفرد الشباب بما يدعو إلى الصبوة إليه والرغبة في استعادته ، فما يخلو عهد من عهود العمر من بواعث الرضى ، وللكهولة لذاتها ومتعها ، كما للشباب ، بل لعل متع الحياة ولذات العيش في الكهولة أقوى وأعمق ، فإن للتجربة مزيها والمعرفة فضلاً ، والمرء يغالط نفسه حين يقول إن ما مر به كان أطيب مما هو فيه ، فما كان كذلك ، ولكن الذي في الماء لا يستطيع أن ينعم بمراى البحر ومناظر السابحين فيه ، كما ينعم بذلك الواقف على الشاطئ ، والماضى أوقع في النفس لأن ذكراه تثير السرور بما كان فيه من حسن ، والأسف على انقضائه ، وتمنى عودته ، ولكن الحاضر يشغل بمعاناته عن التفكير فيه والإحساس به من نواحيه جميعاً . كالسباح في الماء يشغل بمجهود السباحة عما حوله من المناظر . وإذا وسع الإنسان أن يكون في اللحظة الحاضرة وأن ينأى عنها ويلاحظها من بعيد ، ويتأملها ويوقظ لها نفسه وحسه وعقله ، كما يفعل حين يتدبر الماضى - إذا وسع المرء أن يفعل هذا ، فإنه يستطيع أن يضيف إلى لذة الحاضر المتع المستفادة من رجوع البصر أو التذكر .

والأمر يحتاج إلى رياضة ، وقد استطعت أن أروض نفسي على هذا ،
فأنا حين أكون على حال ما . لا أعجز عن انتزاع نفسي منه . والوقوف
بمعزل عنه بحيث يتسنى لى أن أراقب ما يجرى - كأنه يقع لسواى - وأن
أدير فيه خاطرى فأكون فى الحاضر وكأنه مضى وذلفر بالمتعة المحسوسة والمتعة
المتخيلة وضرب مثلاً فأقول هبنى أعانق فتاة وأقبلها ، فأنا حين أفعل ذلك
أشعر بمتعة القبلة ولذة الضمة ، ولكنى أزيد على ذلك أنى أستطيع أن أسبق
هذه اللحظة بسنة أو سنتين . وأنصوّر نفسي بجالساً أتذكر حلاوة القبلة التى
فزت بها من تلك الفتاة ويكون تصورى هذا فى أثناء التقبيل . فهما قبلتان -
واحدة أحسها بقمى ويرف لها قلبى وأخرى يجسدها لى خيالى كما ستكون
بذكرها بعد انقضاء عام أو عامين وهكذا فى غير ذلك .

لهذا لا أرى مزية للعودة إلى الشباب .

سألتى « بعضهم » هل تعتزل الناس ، أو تروم أن تعتزلهم ، لأنك مللت الحياة ، وزهدت في العيش ؟ أو أنت تفعل ذلك لأنك لا تأنس من نفسك القدرة على خوض الغار ، ومصارعة التيار ، أي لفتور عراك وضعف أدركك .

وليست هذه ألفاظ السائل ، فقد نسيت الموضع الذى كنت أدخر فيه رسالته إلى أوان الرد عليها ، والنسيان آفى التى تكاد تذهب بلبى فلنسى كل شئ إلا أنى أكلت ، وما أذكر الشبع إلا بما أعانيه من كربة الثقال ، وأحسب أنه - وأعنى النسيان ، لا الشبع - هو الذى حمانى أن أحب وأعشق ، وكيف بالله يكون حب من يمسى عاشقاً ويصبح سالياً ؟ ؟

أى والله ، وإن الحسن لفتنة ، وإن القلب ليصبو !
ولكنى أنسى أنى صبوت . وتطير من رأسى الأسماء والأحاديث ،
كما تطير العصافير عن أعشاشها .

وقد اتفق لى أن خرجت يوماً بالسيارة وحدى إلى آخر مصر الجديدة ، فأوصدت أبواب السيارة وذهبت أتمشي في الحدائق الممتدة إلى حدود الصحراء ، وكنت مطرقاً أنظر إلى الأرض وأنا أخطو ، وكان بالى إلى الفرق بين وقع قلبي - قدم رجلى السليمة ، وقسدم رجلى المهيضة - وإلى مسافة الزمن التى يستغرقها الخطو بكل منها ، وأيهما أثقل وأبطأ فيما أحس وأرى :

وكان الداعى إلى هذا أنه خطر لى أنى مخطيء فى اجتناب الرقص ،
وأنه عسى أن تسعفى ساقى المهيضة ولا تعباً بالحركة الخفيفة السريعة المطلوبة
فلا يبقى موجب للصبر على هذا الحرمان ومسوغ لتوطين النفس عليه ،
وأنا أحب الرقص ، ولكنى لا أحب أن أكون حجر طاحون ، وأخشى
أن تخذلنى ساقى ، فأتلکأ وأبطيء ، أو درس قدم التى أراقصها وأدور
بها ، وأخجل أن أجرب قبل أن اتبين واستوثق ، وإنى لهكذا وإذا بي
أصدم بفتاة داخلية من بعض أبواب الحديقة ، فالتقيت الوقوع بإسناد كفى
إلى كنفها ، واتقته هى براحتها على صدرى وأفقنا فشرعت اعتذر ،
فقاطعتنى وقالت « أهو أنت ؟ »

فابتسمت وقلت « ليس عندى أدنى شك فى انى أنا ، فهل يكفيك
هذا الجواب ؟ » إنه على كل حال من نوع السؤال «

قالت « إنما أعنى أن هذه مصادفة عجيبة . أين كنت كل هذا الزمن ؟ »
فتأملتها ، وأطلت التحديق فى وجهها الصابح ، ولكن رأسى لم يخلج
فيه شىء . فهزرت رأسى وقلت « كل هذا الزمن ؟ هل ؟ هل أقص عليك
تاريخ حياتى من البداية ؟ »
قالت « ألا تذكر ؟ »

قلت « هذه هى المسألة — كما يقول هملت ، فهل سمعت به ؟ »

قالت « كيف تنسى ؟ كيف يمكن أن تنسى ؟ »

قلت « اسمعى » وجريتها من ذراعها إلى مقعد ، هذا موضوع يحتاج
إلى تقص طويل ، فقولى لى : هل أنا مدين لك ؟ هل اقترضت منك مالا ،
أو استعرت شيئاً ؟ »

فضحككت وقالت « لا مال لى أقرض منه ، وليس عندي ما يستحق

أن يعار »

قلت « هذا حسن . فإني الساعة أدنى ما أكون إلى الإفلاس :
سؤال آخر . . »

فقاطعتني وقالت « لاتسأل . . سأذكرك بكل شيء »

قلت « خيراً إن شاء الله ، هاتى ما عندك »

قالت « أتذكر السويس ؟ »

قلت « أعرف السويس ، مصيف جميل ، ومشى أجمل ، فهل تلاقينا
هناك على ساحل البحر ، أو فى الكازينو ، أو على الباخرة التى ركبنا
إلى الحجاز أو . . . »

قالت — وهي تضحك — انتظر لا ، لم نتقابل فى السويس ، بل فى
طريق السويس ، عند الكيلو الخمسين ، وكنا عائدین إلى مصر : . . »

فقاطعتها « كنا ؟ من تعنين ؟ »

قالت « ألا تنتظر ؟ أخى وصديقتان وصاحب لهما ، وأنا ، فانكسر
غطاء المحرك فوقفنا ننتظر نجده ، وكاد يدخل الليل ، وكنا نأس ،
فقد كانت السيارات التى تمر بنا ، لا تقف ، وهى صغيرة لا تتسع لنا ،
ولا تقوى على جرتنا وإذا أنت مقبل فاعترضت طريقك وأشرت إليك
فوقفت ، وسألنا عما نريد ، فأخبرناك ، فاقترحت أن نحملنا جميعاً فى
سيارتك ، ولكننا اعترضنا ، وقلنا إننا لا نستطيع أن نترك سيارتنا واقترحنا
عليك أن نربط السيارتين فتجرتنا ، ففعلت وركبت أنا معك فقلت لى
« متخرب سيارتى ، وسينهبها هذا العبد » ، ولكنه حسبى عوضاً أن مت
عيون كفت عن البكاء وثلاث وجوه عاد إليها الإشراف . . »

وقد عرفناك وعرفتنا ، وكتبنا أسماءنا كلها فى رقعة ، ولقيت
أنا وأخى بعد ذلك مرتين ، دعوتنا فى أولهما إلى السفين ، وفى المرة

الثانية قضينا أكثر من ساعتين في الأمريكين ، وقد أخبرتك في ذلك اليوم
أني مسافرة إلى الأسكندرية لقضاء شهر فيها ، وأعطيتك عنواني فوعدت
أن تزورني ، وأن تكتب إلي ، قبل الحضور ، ولكنك لم تفعل لا هذا
ولا ذاك .

قلت « الحمد لله »

فقطبت وقالت « إيه ؟ ماذا تعني ؟ »

قلت « اسمعي . إن رأسي هذا غريبال واسع الخروق ، كما يعرف كل
من يعرفني ، وقد كنت أخشى ، وأنت تقصين على الحكاية ، أن أكون
قد قلت أو فعلت شيئاً . . الحمد لله على كل حال ، فقد اقتصر الأمر
على هذا القدر .

« قالت ، ولكن لماذا لا تنتظر ؟ لقد وعدتني أيضاً .. »

فقاطعتها قائلاً « هل تريدني أن تضحكي على ذقني ؟ لأنك عرفت أنني
سريع النسيان ، تخترعين وعوداً و .. »
قالت « ولماذا أخترع ؟ »

فتناولت ذراعها وسألتها « سأوجه إليك سؤالاً قد يبدو لك محرجاً
أو ثقيلاً ولكن عذري هو هذا النسيان ، هل قلت لك أنك جميلة ؟ » .
قالت « نعم .. قلت : « إن عيني زرقاوان كالبحر ، وعميقتان مثله .
قلت « هلنا صحيح » ففرحت وصاحت « هل تذكرت ؟ » قلت « كلا ،
إنما أعني أن عينيك هكلنا تماماً وأن هذا الوصف هو الحقيقة على كل
حال — وهل .. هل .. ؟ »

قالت « نعم »

قلت « ماذا تعنين بنعم » بعبوس .

قالت : « مبتظرة سؤاليك »

فتشهدت وسألتها « هل بستك؟؟ معذرة ! »
قالت « أوه... هذا... نعم ثلاث مرات... مرة في الطريق
وأنا معك في السيارة ومرة... »
قلت « كفى... كفى... إني آسف... ولم يبق إلا أن أسأل هل
كانت القبة حلوة!؟ أظن أنني سأجن... »
فقالت ، وهي تضحك « إنك مدهش... ولكن هل صحيح أنك تنسى
إلى هذا الحد؟ أم تراك تتكلف لتعابثني؟ »
قلت « لا والله ، ما أذكر أنني رأيتك في حياتي... »
وغريب أن أنسى الأصل وأذكر الهوامش !

فهذه حادثة تريك كيف يكون من المستحيل على أن أعشق ، لأني
أنسى كل حب ، بل كل عاطفة ، لا يزيد عمرها على أربع وعشرين
ساعة ، على الأكثر ، ثم تنطوي .

وأعود إلى السؤال الذي بدأت به هذا الفصل ، فأقول إني لم أسأم الحياة
ولم أزهدها فيها ، ولا فترت عنها ، بل أنا أطلب لها ، وأقوى رغبة فيها
ما كنت في أي عهد مضى ، ولست آنس من نفسي عجزاً عن مسابقة
الدنيا ، أو الناس ، فإن الأمر على التقيض ، وأحسب أن الرغبة
في الحياة تقوى مع ارتفاع السن وقلما يلفت الشاب إلى الحياة وطولها
أو قصرها ، أو يفكر في أنها إلى زوال ، لأن ما يحسه من فيض الحيوية
لا يجعل له بالاً إلى شيء من ذلك ، ولأنه يكون مشغولاً بانفاق هذه
الحياة الزاخرة عن كل أمر أو حال آخر ، فهمه أن يريح نفسه من
ثقل الضغط ، وأن يفتح « البوابات » كلها لينحدر منها ويخرج ما يجاوز
طاقته ، ويزيد على قدرته على احتمال ضغطه ثم يتقضى الشباب فيسلس
التلفق وتخف وطأته ويزداد شح المعين على الأيام ، فيتسنى للمرء أن يفكر

بعقله وينظر بقلبه وأن يدير عينه في الماضي ، والحاضر ، وأن يمد بصره في المستقبل ويرى أنه يدلف إلى النهاية ، فيفرق ويشفق وقد يجزع .

وتحدثه نفسه أن النهاية قد تكون أدنى إليه مما يرجو فيشهى أن يفوز فيما بقي له من العمر . باضعاف أضعف ما فاز به فيما مضى وانقضى ويطلب أن ينعم أعظم نعم في أوجز وقت لأنه من يدري ؟ قد لا يطول العمر . وقد يتخونه الموت . وهبه طال فقد لا تبقى الصحة . وما خير حياة بلا صحة ولا قدرة على العمل والاستمتاع ؟

فهو لهذا يقبل على الحياة ، لم يكن يفعل في شبابه ، لأنه كان مغترأ بالعباب الزاخر في شبابه ، ومفتونا به ، ومصروفا عن التأمل والتدبر ، أما في الكهولة فاذا يغتر ؟ وماذا يتوقع ، وهو يحس النضوب يوما بعد ؟؟ ومن أجل هذا يخطيء من يتوهم أن الشباب هو وحده سن الإقبال على الحياة ؟ فما ينقطع أو يفتر الإقبال ، ولكن المرء في صغره يركب الحياة بالجهل ، أما في الكهولة فإنه يركبها بالإرادة ، وهو في شبابه يكون محمولا على متن تيار لا يستطيع أن يقاومه أو يصدده ، وفي كهولته يكون كراكب السفينة المطاوعة يمحربها إلى حيث ينبغي ، وقد صارت في عونه تجربته ، وسكون التيار ، كذلك يخطيء من يحسب الكهولة أضال استمتاعا بالحياة ، فإنها أدرى بالمتعة ، وأحسن بها ، وافطن لها ، وأعرف بوجوها ، وأخبر بالوسيلة إليها .

كلا ، لست أنشد الاعتزال لشيء من هذا الذي سأل عنه بعضهم ، بل لأسباب أخرى أعمق ، أحاول أن أجلوها ، وأراني كلما عاجلت ذلك أذهل عنها ، أو استطرده ، أو أغرق خطر أنها في بحر من الذكريات والتأملات .

قلت إن من الخطأ أن يتصور أحد أن الشباب أشد إقبالا على الحياة ،
وطلباً لها ورغبة فيها ، أو أن الكهل أقل تشبها بالحياة أو أكثر فضيلة أو
آثراً لها وللعفة والزهادة في سيرته . وقد أثار هذا القول اعتراض بعض
الإخوان ، فأنشأوا يجادلوني فيه ، فكان مما قلته لهم إنكم لا تواجهون
الحقائق بل تهربون منهما ، وتشيحون بوجوهكم عنها ، لأنكم ترون هذا
أكرم لكم وأبعث على توقيركم ، أو أنتم تجهلون نفوسكم ، أو تغالطونها
أو لا أدري ماذا غير هذا وقد كنت شاباً كما كنتم ، ولعل الفرق بيني وبينكم
أني كنت ، وما زلت ، مغرى بإدارة عيني في نفسي ، والغوص في لجتها
على ما عسى أن يكون فيها من طيب وخبيث ، وأني لا أحب أن أسمى
الأشياء أحسن أسمائها بل أسمائها الحقيقية ، وأني قد أغالط الناس ، وأخذهم
ولكني أصدق نفسي . وليس أحلى عندي وأمتع ولا أوقع وأروع ، من أن
أتناول نفسي ، كلما تيسرت لي الخلوة بها ، وأحطها على كرسي أمامي ،
وأندبرها ، وأجبل فيها عيني ، وأفحصها وأجسها ، وأسبر أغوارها ،
وامتحن نزعاتها وبواعثها ، واتمس المصادر الأولى لأهوائها في أعماقها ،
وإصلاحها بحقيقة ما أرى وأعتقد ، بلا تلثم ، أو مصانعة ، أو مغالطة ،
وعسى أن يكون هذا مدعاة للإسراف والشطط ولعله يحمل على التجنى ،
ولكنه خير عندي من المغالطة على كل حال .

والقول بأن الإنسان يركب الحياة بشبابه غلط ، والصواب أنها هي التي
تركبه في شبابه تركض به من غير أن يكون له رأى أو إرادة ، ومن غير
أن تدع له فرصة للراحة والاستمتاع ، وما يركب الحياة بالرأى والإرادة

إلا الكهل على خلاف المظنون والشائع . أو هذا ، على الأقل ، مابلوته من نفسي ، وعرفته وأيقنت أنه الصحيح .

كنت شاباً . فكيف كانت، حياتي ؟ وكيف كان الشعور بها ؟ أرد عيني إلى هذا الماضي وأحرق ، واستشف ، واستجلى ، واستوضح .

ثم أهز رأسي ولا يسعني إلا أن أقول لا أدري ! كل ما أدريه أني كنت محبولا على متن تيار قوي، وكنت أقرأ ، وأعمل ، وأجد وألعب ، وأشهى وأطلب أو أقصر ولكن بنير فهم صحيح ، أو إدراك تام لما أنا فيه ، أو لبواعثه أو لمصائر الأمور ، كانت الكتب تعديني وتسحرنى ، فانظر إلى الدنيا بعين أصحابها لا بعيني ، وأحسها بقلوبهم لا بقلبي ، وأنصوّر حياتي وأقيسها على ما يروقي من صور الحياة في هذه الكتب ، وانتحل آمال أصحابها ومخاوفهم ، وهماهم وعزماهم ، ومثلهم العليا ، وصور الكمال عندهم ، وأوحى ذلك كله إلى نفسي ، ثم ازعمني ندهم وقريعهم فآزهي وأتكبر ، وأغتر ، لأنني أرى نفسي كما رسمها خيالي الذي استمد من هذه الكتب لا كما هي في الواقع ، وكنت أفعل الشيء أو أتركه بوحى هذه الكتب .

واضرب مثلاً - عشقت مراراً ، وقال في صديقي الأستاذ العقاد قصيدة بعث بها إليّ ، في ذلك الزمان .

أنت في مصر دائم التمهيد بين حب عفى ، وحب جديد

وأذكر أنه بعث إلى يومئذ برقعة كتب فيها أسماء المعشوقات وإلى جانبها أرقامها ، وكان الرقم الأخير ١٧ وسلسل الأرقام تحتها ووضع أمامها أصفاراً لا أسماء ، إشارة إلى أن معاشقي لا تنتهى ، وأنه ينتظر أن يعرف الأسماء ليقبدها قبالة أرقامها .

وإذا قلت عشقت ، فلأنما أعنى الآن أنى اشتيت ، وأنى عانيت هذا
الضرب من الجوع الذى يسميه الناس الحب ، ولكنى لم أكن أدرك
هذا يومئذ ، أو أنظر إلى حقيقة الأمر فيه ، ولأنما كان ما أقرأ من الشعر
يغرينى بنشدان الحال ، ويطلقنى كالنحلة بين أزاهير الحسن ، ويدفعنى إلى
إحياء الشعور بالحب إلى نفسى ، فأتوهم أنى محب ، وأنى عاشق ،
فأقضى الليل مسهد الجفن مؤرق النفس ، أنظم الشعر وأقول فى هذا
المحبوب أو ذاك .

وألقي المحبوب ، فإذا كنت أصنع ؟؟ لا شىء أكون معه كما أكون
مع أى واحد من خلق الله ، ولا يخطر لى حتى أن أتملى بهذا الحسن وأسعد
بنصارته وروثه ، أكلمه كما أكلم غيره ، وأجد أو أمزح ، على نحو ما أفعل
مع إخوانى بلا أدنى فرق وأرجع لى بيتى ، وأقعد بين كتبي ، فأروح
أتصور هذه الجلسة العادية على نحو آخر ، وأخلع عليها من الخيال حللا
ذات ألوان شتى ، وأسبغ ما دار من الحديث وما كان من إشارات
أو نظرات لم أعبأ بها فى حينها ، وأحملها المعانى التى أريدها ، فأسر بهذا ،
وأنا لم لذك ، وأرى فى هذه الكلمة والإشارة أو النظرة ، معنى الرضى أو
التشجيع ، وفى تلك معنى التدلل أو الملل ، أو القصد إلى الإيلام ولا أزال
هكلنا حتى تجتمع مادة كافية من ضروب الإحساسات لنظم قصيد !
لا ، لم أكن أعيش ، أو أشعر بالحياة ، ولأنما كنت أنظم شعراً ،
وكنت وأنا أنظمه أتمثل الإحساس الذى أريد العبارة عنه ، والعاطفة التى
أتميل الصدور عنها ، ووحى لنفسى هذا كله ، وانتهى بأن أعتقد بأن هذا
هو الذى شعرت به حقيقة لا توها ، وأنه هو الذى خامر نفسى لا الذى
أنشأته أنا لها بقوة الإحياء .

ولا يخلو من فائدة فى بيان هذه الحقيقة ، وأن أقول أن قرص
الشعر هو الذى كان المقصود والذى اتجهت إليه الرغبة وتعلقت به الإرادة
ولأن ما كان من حب متوهم ولأنما كان ثمرة هذه الرغبة فى قرص الشعر ،

أى أن قول الشعر كان يبعث على التماس المادة له ، كما يريد النجار أن يصنع كرسيًا فيطلب الخشب وما إليه ، والدليل على أن هذا كله كان بفعل الإيحاء ، أن من أعرف الآن من نفسي أنى صغوت بقلبي إليها لم تكن قط موضوعاً لشعري ، فإذا كنت قد نقلت قلبي مرات وطررت عن زهرة إلى زهرة في بستان الحسن ، فذاك لأن العاطفة لم تنشأ نشوءاً طبيعياً ، بل بإيحاءها إلى النفس .

وفى وسع القارئ أن يقيس على هذا . فأنا لم أكن في شبابي ألتقي وقع الحياة مباشرة ، بل عن طريق الكتب ، وكنت لهذا كالذى نومه غيره تنويمًا مغنطيسياً ، فراهيه ، وشعوره ، وعاطفته ، وهواه ، وأمله وخوفه ، وحبه وبغضه ، هو ما يحدثه في نفسه إيحاء منومه .

وقد شببت عن هذا الطوق . وما زال ولوعى بالكتب كما كان ، ولكنه لم يبق لها شيء من ذلك السحر القديم ، فقد استطعت بفضل معاناتي للحياة أن أقي نفسي وأجنبها تلك الفتنة ، فأنا أنظر في الكتب ، وفي الحياة ، بعيني ، لا بعين الكاتب أو الشاعر ، وأحس بقلبي لا بقلب سواي وألتقي وقع الحياة منها لا من إيحاء الكتب ، وأطلب الشيء لأنى أريده وأراه جديراً بالطلب ، وأقيس قدرتي إلى رغبتي ، وأوازن جهد السعى وثمرته المرجوة وأقدم أو أحجم بعد القياس المضبوط ، والموازنة الدقيقة .

وأحاول أن لا أغالى بقيمة شيء ، أو أن أبخسه حقه ، ولا يستخفى هوى ، أو يغرنى حال ، أو يخرجنى عن طورى أمر ، أو يفقدنى اتزانى فرح أو حزن ، ورضى أو غضب ، ولا تجمع بى شهوة ، ولا تركض بى صبوة ، لأنى أصبحت أعرف القيم الحقيقية للأشياء ، ولا أعلو بها مكانها . ولا أخلط بها الأوهام ، ولأنى أسير في الحياة بالإرادة الصارمة لا طوع الجواذب ، فإذا سألتنى لماذا أفعل الشيء ، فإنى أعرف الجواب الصحيح ، إذ كنت لم أفعله إلا بعد الروية والحساب والوزن ، وكذلك ما أترك أعرف علة تركه .

ويمكن أن أقول - ويمكن أن يصدق القارىء - إنى كنت فى شبانى أواقع الحياة واقعة الهواء ، أما الآن ، فإنى أواقعها واقعة المحترف ، وقد صارت الحياة عندى حرفة ، تعلمتها ، وحذفت منها الجانب الذى طلبته ورأيت أوفى لى ، والفرق بين الهاوى والمحترف لا يحتاج إلى بيان .

وكل عواطفى وأهواء نفسى ، طوع إرادتى ، وإراداتى لا تخضع إلا لتقديرى لما ينبغى - ويحق لى فى رأى - أن أفوز به من الحياة . والعمد فى سيرتى محقق ، إلى الحد الذى يتيسر للدخول الخاضع لسنن الخلق . وهذا العمد من بواعث السعادة لنفسى . لأنه يكسبني حظاً من الاستقلال ويجعل لى فيما أشعر نصيباً من الحرية ، فى الحياة ، ولا شك أنه يجعل شعورى بالتبعات أقوى وأثقل ، ولكن هذا هو الأكرم ، إذ أى قيمة لإنسان لا يشعر أنه مسئول عما يصنع ؟

- ٢٠ -

كانت حياة الشباب ، حياة كبت ، وحرمان وحيرة ولم أكن أعرف
لى يومئذ معاداً غير الإكباب على القراءة والإكباب على قرض الشعر وكنت
أقول - ولا يخفى على عبث ما أحاول -

وما نظمت من الأشعار إلا علالة
لو أن سكتوا بالقريض يكون ! ،

* * *

وكنت أقول لمن يذكرون شعري :

« فلا تنفسوا شعرا ، على ، مفوفا
له ، لو علمتم ، جانب متخوف
كما نظمت هذه الرياح غمماً
لها من غروب الشمس وشي مطرف
يهددها مما يضم ، ممزق ..
ومما يوشىها ، مذيّب ومتلف
لنا الله من قوم تذيب نفوسنا
ويجنى سوانا ما نشور ونقطف
ويصدر عنا الناس رياء قلوبهم
ونحن عطاش ، بينهم نتاهف
نلوق شقاء العيش دون نعيمه
على أننا بالعيش أدري وأعرف

* * *

وأحب أن اتعزى بالوهم فأردف ذلك بقولى :

« ولكنه ما أخطأنا لذادة

إذا بلغ السؤل القريض المثقف

إذا هو سرى عن لحيث مفعج

وأنس قلباً موحشاً يتشوف

فما تحفل الدنيا إذا جل ظلمها

ونحن من الأيام والعيش ننصف »

ولم يكن زعمى أنى أحد الذين ينصفون نفوس الناس من الأيام
وظلمها ، بعزاء صادق أو دائم ، فكانت وطأة الحرمان والكبت تثقل على
كاهل صبرى فأصبح :

« لبست رداء العيش عشرين حجة

وثنتين ، ياشوق إلى خلع ذا البرد !

عزوفاً عن الدنيا ، ومن لم يجد بها

مراداً لآمال تعلل بالزهد . »

فيوم كان فيض الحياة زائحاً ، كنت أقول ياليتنى ما كنت ، ولم
يكن هذا طبيعياً ، ولكنه كان ثمرة الكبت ، وجنى الحرمان ، وقطاف
الحيرة ، والآن ، وأنا أدلف إلى الخمسين ، لشد ما آتمنى أن يثقل الزمان
رجله ، ليطول التلبث ، تقضى النفس وطرها من التزود قبل أن يستأنف
الركب مسيره إلى « فجر لا شيء » كما يقول الحيام فى إحدى رباعياته ؟
وقد صار ما كان يشق على أن أراه ، باعثاً على التسلية ومجلبة للسرور ،
ولم يصدق ظنى حين توهمت فى أيام الشباب الكاذب ، أنى سأقضى حياتى
ثائر النفس ، هائجاً ، أنه ليس لى عن ذاك معدى أو مهرب فقد قلت :

« سكنت ، فما أدرى الفتى كيف يغتدى

تجد به الأشجان طورا وتلعب »

كما قلت على لسان غيرى .

بل لم أسكن ، ولكنى نظرت إلى الحياة من ناحية أخرى ، فقد
تغيرت الدنيا ، واختلفت أحوال الحياة ، فراجعت نفسى . ورضتها
على غير ما ألفت وانعطفت بها إلى سبل أخرى . فقد عرفت أن شعورى
القديم بالملت للحياة كان غير صادق ، وأنه لم يكن سوى مظهر لحالة
عارضة أعانيها ، وأن حب الحياة والتعلق بها أعمق من ذلك لكن حب الحياة
كان يصطدم أحيانا بالجزع من الموت . فكان يرجي هذا ويخرجني عن
طورى . . ويعصف باتزانى فأراني أثور وأحاول فى مثل هذه الحالة الوقتية
أن أنقص على الناس كأن لهم ذنباً أو كأنهم ليسوا مثلى سواء بسواء ، فأروح
أقلد : « هينى » الشاعر الألمانى ، وأكتب وصية ليس أكشف منها عن جنون
الثورة ، فأقول مثلاً :

« سترخى على هذى الحياة الستائر
وتطفأ أنوار ، ويقفر سامر
فهل راق هذا الناس قصة عيشى ؟
وماذا يبالى من طوته المقابر ؟
تركت لهم من قبل موتى وصية
نظير التي وصت بها لى ، المقادر
وهبت لأعدائى ، إذا كان لى على ،
هموى وما منه ، أنا الدهر ، تأثر
وأوصيت للمحبوب بالسهد والضئى
وباللمع لا يراقا ، ولا هو هامر ،
وبالجلدى فى وجهه ليزينه
وبالعرج المشنوء ، والله قادر

وبالضعف والأملاق والبأس والجوى
وبالقسم حتى تتقيه النواظر ،
وللشيب بالأوجاع في كل مفصل
وبالككل في الأبناء والجد عاثر
وكل سقام قد تركت لدى الصبا
وما كنت منه في الحياة أحاذر
وللتناس ألوان الشقاء ، ولأني ،
إذا مت ، لا آسى على من يخامر

ولم يكن لي في ذلك الحين بنون ومن أجل هذا فاتني أن أوصي لهذه
الطبقة بشيء من تلك الثروة البغيضة !

وكان عقلي يثوب ، فأطوى هذا الهراء ، ولا أنشره فيما كنت أنشر
من شعري . . على أني كنت هادئاً ساكناً ، لما عثرت - وأنا أحاول .

عبثاً أن أتعلم الألمانية وحدي - على بيتين فيهما غير قليل من خبث
المكايدة ففرحت بهما وترجمتهما فيما يلي - والمفروض أنهما يكتبان على
قبر صاحبهما .

أيها الزائر قبرى
اتل ما خط أمامك
ههنا ، فاعلم ، عظامي
ليتها كانت عظامك !

وترجمتي هذين البيتين ، وأنا هادئ ، دليل على أن الثورة كامنة
في النفس وإن كانت لا تبدو في العادة .

ثم صرت لا يعزيني علمي أن غيري لا محالة ذاهب ، إلى حيث أذهب
وإن المآل واحد ، ولا يقنعني إلا أن أصور لنفسي فناء العالم كله ، بل العوالم
أجمع ، حتى هذا لم يكن فيه مقنع ، فكنت أشتي أن أكون آخر من في
الدنيا لأشهد مصرعها بعيني ، وأطمئن . وربما غالطت نفسي فزعمت لما أن
هذه شهوة فنية ، ولكني لا أصدق ! كلا ، لا أصدق .

وكان مظهر هذا قصيدة تصورت فيها ثلاثة نساجين (ولا أدري لماذا
لم أجعلهم أربعة أو عشرين !) يصنعون كفنًا للعالم .

تعاقب أيديهم على النول ، دهرهم ،
ولست أراه غير أني عالم
وما بي ، إلى أن تبصر العين ، حاجة
أليس سوي ما أنت بالعين شائم ؟
هنالك ، لو تلدري ، تسدى أكفهم
وتلحم ثوبا عهده متقادم
وفي مسمعى منهم — وإن كنت لا أرى
وجوههم — أصواتهم والزمازم
يحكون ثوبا ناصعا فيه تنطوي
— متى عريت — هنى الدنيا والعوالم
من البرد الخزي بيض خيوطه
ومن بلورات القر فيه نمانم
ومن نفس الريح المديد خطوطه
ومن قطع السحب الثقال مراقم

ألا ليتنى فى الأرض آخر أهلها

فاشهد هذا النحب يقضيه عالم

وقد خلفت ورائى هذه المرحلة أيضا ، فليست ألتمس عزاء ، أو أنشد
ما أغالط به نفسى فى الحقائق . وسيان عندى اليوم أن يذهب الناس
أو لا يذهبون ، فما أحفل شيئا من هذا ، ولأنه لآثر عندى أن يبقوا لو كان
إلى هذا سبيل ، على أنى لا أعنى نفسى بأمرهم ، وحسبى أمر نفسى ،
وهى فى هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسلده
اضطراب ، لا على الركود فإن هذا شر من الموت ؛ بل طعمه يذاق
فى الحياة ، والسكون قوة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة .

الشعب

٩٢ شارع تيسير المين بالتمه
طوبون ٣١٨١٠

رقم الايداع ١٥٥٣/١٩٧١

Bibliotheca Alexandrina



0395438

إختصاصيون
في الطبوع
والطباعة

دار الشعب
مؤسسة مجتعية عربية

تصدر
عن

مطبوعات
دار الشعب

الطبعة ٩٢، شارع قصر العيني، القاهرة ١١٨٠ • مكتبة دار الشعب - ت ١٩١

طابع وتصميم: ١٩٧١ - ١٩٧٢
مكتبة دار الشعب

مكتبة دار الشعب

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م